

الباب الأول

النقد الأدبي النشأة والتطور

ويشمل أربعة فصول :

الأول : نشأة النقد وتطوره

الثاني : النقد الذاتي والموضوعي ، الصلة بين الأديب والناقد

الثالث : الذوق الأدبي

الرابع : النقد عند العرب الجاهليين واتجاهاته

الفصل الأول

نشأة النقد وتطوره

بدأ النقد الأدبي مع بداية الأدب لتعلقه به وهذه حقيقة يؤيدها الواقع الأدبي والحقيقة المنطقية .

- وقد عرفت اللغة الفصحى بخصائصها المميزة لها قبل الإسلام بأكثر من أربعة قرون ، ولا ريب أن البيان بها علي أشكال التعبير المختلفة شعراً وخطابة ، وقصاً قد تطور عبر مراحل عدة وصاحب هذا التطور بلا شك ذوق نقدي يستطيع أن يساير هذه التجارب الأدبية حتي استوت وینعت .

- وقد وردت كلمة النقد في اللغة العربية لتدل علي معان عدة واستعمالات مختلفة :

فمن معانيها ما جاء في لسان العرب :

النقد : خلاف النسيئة " البيع المؤجل ثمنه " والنقد والتنقاد : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها أنشد سيبويه :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة

نفي الدراهم تنقاد الصياريف^(١)

- ومن معانيها العيب والنقيصة والتجريح فيكون المعني بعكس التقريظ والمدح ومن حديث أبي الدرداء أنه قال " إن نقدت الناس

(١) الدراهم : جمع درهم أو درهم علي غير قياس . لسان العرب ج٦ ص ٤٥١٧
ط دار المعارف .

نقدوك ، وإن تركتهم تركوك " أي إن عبتهم وتتبع عوراتهم قوبلت
بمثله .

- ومن معانيها النقر بالأصابع : يقال نقد الشيء ينقده إذا نقره
بأصبعه كما تنقر الجوزة .

- ونقر أرنبته " مقدم أنفه " بأصبعه إذا ضربها به قال الشاعر :

وأرنبة لك محمرة . يكاد يفطرها نقده

أي يشقها عن دما :

- ومن معانيها : الاختلاس : يقال نقد الرجل الشيء بنظره ، ونقد
إليه أي اختلس النظر نحوه ، وما زال الرجل ينقد نظره إلي الشيء
إذا لم يزل ينظر إليه .

- ونقد الطائر الحب ينقده : إذا كان يلقطه واحداً واحداً

- ونقد الطائر الفخ ينقده بمنقاره أي ينقره لينظر ما وراءه من أمن
أو خوف .

- ونقدته الحية أي لدغته .

- هذه المعاني جميعاً لكلمة " نقد " عرفها العرب ، واستعمال العرب
لهذه المعاني تلتقي مع معناها الآخر وهو النظر والفحص والتمييز
رهي معان تقترب من مدلول الكلمة عندما نضيف إليها الأدب أو
نوصف به فيقال نقد الأدب ، أو نقد أدبي ، أو النقد الأدبي

وخلاصة القول أن لفظة " نقد " تدور حول معان ثلاثة هي :

(١) التمييز (٢) الاختبار ومنه النقر بالأصبع ليختبر جوده الشيء
(٣) الإيلام ، ومنه لدغ الحية .

وهذه المعاني الثلاثة موجودة في الأدب فالمعني الأول وهو التمييز موجود فيه ، كما أن تمييز الدراهم هو فصل صحيحها من زائفها فكذلك نقد الأثر الأدبي هو تمييز وفصل جيده من رديئه ومعلوم أن هذا التمييز والفصل يتطلب خبرة كبيرة بأدوات النقد كالبصيرة الثاقبة واتساع الثقافة والإلمام بعلوم اللغة .

- والمعني الثاني وهو الاختبار موجود في النقد الأدبي أيضاً، فمعناه الفحص الدقيق والتأمل الواعي وتلك مرحلة تسبق التمييز لأن الناقد قبل حكمه علي العمل الأدبي بالجودة أو الرداءة ودرجته من كل منهما أو التوسط أو الامتياز أو الانحطاط لابد أن يفحصه أولاً ويتأني في تأمله ليقف علي ما فيه ولتظهر لديه جوانب العمل الأدبي ظهوراً بيناً لا غموض فيه ولا التواء .

- وأما المعني الثالث وهو الإيلام فيقع في الأدب أحياناً ، وذلك عند بيان وذكر ما في الأثر الأدبي من مأخذ وعيوب ومثالب فلا شك أن في ذلك إيلام شديد لدى المنقود ، خاصة إذا كان التركيز علي المعايير دون المحاسن .

- ويمكننا أن نضيف إلي معاني " النقد " : الحكم وهو المحصلة النهائية للنقد ، كما أنها تغطي كل جوانب الأثر الأدبي أو النص فلا بد أن يكون الحكم عاملاً وشاملاً .

* فالنقد إذن فحص الآثار الأدبية ودراستها لتمييز جيدها من رديئها والحكم لها أو عليها ، ويكون ذلك من ناقد مستكمل الأداة مع الشرح والبيان والتعليل .

والنقد يقتضي " الإلمام الكافي بالظروف المختلفة التي أسهمت في النص الأدبي المنقود " .

* وقد عرف بعض الباحثين النقد الأدبي بأنه :

" تقويم النص الأدبي بالكشف عما فيه من جمال أو قبح " (١)

فالنقد مهمتان : مهمة التفسير ، ومهمة الحكم .

- والنقد الأدبي تعبير محدث وهو علي حدائته وثيق الصلة في معناه العام بالأصل اللغوي (٢)

(١) اتجاهات وآراء في النقد الحديث د / محمد نابل .

(٢) معالم النقد الأدبي د / عبد الرحمن عثمان .

تطور مفهوم النقد واستعمال العرب له

أما استعمال العرب لكلمة النقد فقد جاء متأخراً

وفي القرن الأول : استعملوا " العلم بالشعر " الذي هو أساس ومرتكز عمل الناقد ، فقد روى " ابن سلام الجمحي " في طبقاته عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : " وكان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوها بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوحات ، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر " .

وفي القرن الثاني : " اتجه النقد إلي تمييز الشعر الصحيح من المختلط " المنحول " لأن بعض الرواة وضع في شعر بعض الشعراء ما ليس منه - بدافع ما - وصار لا يستطيع القيام بهذه المهمة إلا من عنده علم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم وصار من يقوم بذلك يعرف بالعالم الناقد .

يروى أبو الفرج الأصفهاني عن المفضل الضبي المتوفي سنة ١٦٨ هـ وهو بصدد الحديث عنه " حماد الراوية " قوله :

" وقد سلط علي الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً فقيل له وكيف ذلك ؟ أخطئ في روايته أم يلحن ؟ فقال ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلي الصواب ولكنه رجل عالم

بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول
الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في
الآفاق فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم
ناقد وأين ذلك ؟ ! ^(١)

من خلال الحديث السابق للضبي الذي بين فيه جناية حماد علي
الشعر يتضح الآتي :

أن ممارسة النقد والبراعة فيه وإتقانه لا تتأتي لكل عالم ، وإنما لكل
من كانت له بالشعر خبرة وذوق ، ويحفظ الكثير من الأدب حتى
تكونت عنده ملكة الذوق الأدبي فاستطاع الفهم والتفسير والحكم
واستطاع أن ينقد الشعر ويحكم عليه .

روي ابن سلام الجهمي المتوفى سنة ٢٣١ هـ قال : قال قائل
لخلف الأحمر إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه
أنت وأصحابك .

فقال خلف : إذا أخذت درهماً فاستحسنته . فقال لك الصراف : إنه
ردئ هل ينفعك استحسانك له ؟

ثبت إذن أن الخبرة والدربة والفتنة والصبر علي فحص النصوص
هي ثمرات للدراسة المتتابة . وهي التي تكون ملكة الذوق الأدبي
التي هي لازمة للناقد كما أنها تعينه علي العلم بما ينقد .

^(١) الأغاني ج ٦ ص ٨١ ط دار الكتب .

أما في القرن الثالث الهجري : فقد استعملت كلمة النقد مضافة إلي الشعر ، وصار يفهم منها : تمييز جيد الشعر من رديئه ، وبهذا المعني انفصل معني آخر عن النقد وهو معرفة غريبه ومنحوله وإعرابه التي صارت صناعة أخرى غير نقد الشعر .

روى عبد القاهر الجرجاني عن صاحب للبحثري الشاعر المتوفي سنة ٢٨٤هـ هذا القول " رأني البحثري ومعني دفتر شعر فقال : ما هذا ؟ قلت : شعر الشنفرى ، فقال : وإلي أين تمضي به ؟ فقلت : إلي أبي العباس أقرؤه عليه ، فقال : قد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة فما رأيت ناقداً للشعر ولا مميزاً للألفاظ ، ورأيت أنه يستجيد شيئاً وينشده وما هو بأفضل الشعر فقلت له : أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه " (١) - إذن هذا المعني وهذا الاستعمال للنقد ظهراً علي السنة الشعراء وصار النقد عندهم يعني شيئاً جديداً ، بيد أن هذا الاستعمال لم يرد في كتب الأدب أو النقد التي ظهرت آنذاك فلم يذكره ابن سلام في " طبقات الشعراء " ولم يذكره ابن قتيبة في " الشعر والشعراء " ولم يذكره ابن المعتز في " البديع " .

- أما من ناحية الشعراء فصار الناقد عندهم ذا حاسة فنية بها يفهم دقائق الأشياء ويميز بذوقه الرفيع الأشعار ويبين جيدها ورديئها .

(١) دلائل الأعجاز ص ١٧٤ تصحيح وشرح وتعليق أحمد مصطفى المراغي ؟ المكتبة المحمودية التجارية .

يقول الشاعر " ابن الرومي " :

يا أبا جهلٍر تحكم في الشعر وما فيك آله الحكام

إن نقد الدينار إلا علي الصيرف صعب فكيف نقد الكلام

قد رأيناك لست تفرق في الأشعار بين الأرواح والأجسام

- ويقول أيضاً يهجو الأخفش في سخرية لاذعة ويلوم من عرض

شعره عليه :

قلت لمن قال قد عرضت علي الأخفـ ش ما قلتـ ، فما حمده

قصدت بالشعر حين تعرضه علي مبين العمي إذا انتقده

ما قال شعراً ولا رواه فلا ثعلبة كان ولا أسده

فإن يقل إنني رويت فالدفـ تر جهلاً بكل ما اعتقده

إلي أن قال :

وقال قولاً بغير معرفة إفكاً ، فما حل إفكه عقده

شعري شعر ، إذا تأمله الإ نسان ذو الفهم والحجي عبده^(١)

أما في القرن الرابع : فقد ذاعت كلمة النقد ، وانتشر استعمالها لما لها

من مدلول أدبي ، وربما رجع الفضل في ذلك إلي مجموعة من

العلماء كأبي بكر الصولي في كتابه " أخبار أبي تمام " والآمدي في

كتابـه " الموازنة بين أبي تمام والبحثري " ، والقاضي علي بن عبد

^(١) ابن الرومي ، حياته من شعره ص ٢٧١ .

العزیز الجرجانی فی کتابه " الوساطة بین المتنبی وخصومه " وأبی
هلال العسکری فی کتابه " الصناعتین "

و كذلك کتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر ، و کتاب " نقد النثر "
الذي نسب إلی قدامة ، بید أن البحث العلمي أثبت أنه لمؤلفه
" الحسن بن وهب " الكاتب .

- ولما جاء القرن الخامس الهجري : زاد مفهوم كملة " نقد " تأكيداً
ووضوحاً وتمكن رسوخها فضل تمكن ، وذلك بفضل نخبة من
المفكرين والنقاد وأهل الفكر والذوق من أمثال الإمام " عبد القاهر
الجرجاني " والمزروقي وابن رشيق صاحب كتاب " العمدة "
بهذا : يمكن أن نقول أن النقد قد اشتهر وذاع بعد القرنين الرابع
والخامس في كتب النقد ولكنه وجد قبل ذلك في عديد من الكتب دون
التصريح بلفظه أو الإشارة إليه .

الفصل الثاني

النقد الذاتي " الإقناعي " - والموضوعي

(١) النقد الذاتي : الإقناعي " التأثيري " :

وهو مجرد الاختصار علي الاستحسان أو الاستهجان في مجال النقد ، أي يبني الناقد نقده استجابة لمشاعره الشخصية النفسية وتذوقه الفني للأثر الأدبي دون أن يسبق هذا الاستحسان أو الاستهجان بدراسة فكرية ، أو بتمهيد لهذا الحكم ، وهذا ما سماه المحدثون بالنقد الذاتي أو التأثيري وعند القدماء كان يسمى " الإقناعي "

وإذا اتفقنا أن النقد الأدبي هو ذلك التفسير والحكم اللذان يقومان علي أعمدة أساسها التذوق الفني الناجم عن الإحساس المرهف بالجمال ، أو بالقبح في النص الأدبي ومكوناته ، والثقافة الفكرية الراقية ومكوناتها ، وما يضاف إليها وإلي النص من اطلاعات علي النقد الغربي بلغته ، أو مترجماً فإن التذوق الفني أو الجمالي للنص لا تتعدى فائدته الناقد ، كما أن تحليل النصوص الأدبية والحكم عليها من غير تذوق قد لا يجدي ، وهذا ما يعني القول بضرورة اجتماع الطرفين عند الناقد .

وفلاسفة هذا الفن مثل " تين " الفرنسي ، و " كروتشه " الإيطالي يرون أن الذوق الشخصي لا قيمة له عندهم .

أما أصحاب هذا المذهب " مذهب النقد الذاتي " فيرون أن الذوق الشخصي هو كل شئ في إدراك ما في العمل الأدبي من جمال أو رداءة ، إذ الذوق عندهم هو الفيصل والمحك الذي تقوم عليه عملية النقد .

والأذواق عندهم لا تعطل ، كما أنها ليست وسيلة من وسائل المعرفة التي يمكن أن يسلم بها الغير ، وإنما هي وسيلة إلى إدراكات معينة تستتفر في شعور المتنوق " الناقد " رضاً أو سخطاً ، وكأنني بهم أرادو أن يقولوا أن تذوق الناقد لما في العمل الأدبي من جمال أو غيره يوفر له اللذة الذاتية حيث يرضى عما يقرأ ، فاستحسان الناقد واستهجانهم مردهما إلى الذوق الخاص به في العمل الأدبي .

فهذا أبو عمرو بن العلاء كان يستجيد قول المتنقب العبدى في قصيدته التي قال فيها :

فإما أن تكون أخي بحق فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني عدواً اتقيك وتنتقيني

ويقول : لو كان في الشعر مثلها لوجب علي الناس أن يتعلموه فالأبيات تدل علي لون من الشعر استجيد في معني خاص وهو الصداقة الحقة التي ترقى إلي مرتبة الأخوة كما في قوله " صلي الله عليه وسلم " : " المؤمن مرآة أخيه "

٢) النقد الموضوعي :

وهو أن يجمع الناقد بين تذوقه الجمالي ، وبين الشرح والتعليل لهذا التذوق وهذا الشرح والتعليل مستمدان من دراسة العمل الأدبي ظاهراً وباطناً ، مضافاً إليهما التعرض لصاحب العمل الأدبي والمؤثرات العامة فيها والحكم علي قيمتها وتقدير درجة العمل الأدبي تقديراً فنياً دقيقاً .

- أي أن النقد الموضوعي هو الجمع بين التذوق والتفسير والحكم علي العمل الأدبي مضبوطاً بقواعد مرسومة وقوانين موضوعية اتفق عليها السابقون واتخذوا منها المثال الذي يقاس عليه ، ويقارن به .

- ولا جرم أن هذا الحكم الصادر عن الناقد قد يكون لفئة أدبية تظهر جوانب النص من حسن وقبح وتفصل مقوماته وذلك كالنظر إلي ما فيه من تجربة شعرية قائمة علي الفكر والعاطفة والخيال والإيحاء والصور ، ثم الموازنة بينه وبين نصوص أخرى مماثلة لذلك النص في الموضوع ذاته وقد بلغت تلك النصوص درجة عالية من الحذف والجودة .

- ومما يعين الناقد في نقده هذا :

* معرفته بالبيئة العامة والخاصة للأديب الذي أنتج العمل الأدبي .

* كذلك معرفته بالجانب النفسي له .

هذا بالإضافة إلي ثقافة الناقد ، وذوقه ، وملكته السليمة .

وملكة الذوق هي التي تهدي الناقد إلي مبررات الحسن والقبح أو الجودة والرداءة ممثلة في صور ، وضوابط ، يفضلها الناقد علي غيرها .

- والنقد الموضوعي تكفي فيه مجرد اللفظة الأدبية التي يلحظها الناقد علي النص أو العمل الموجود أمامه . وذلك لأنها تقوم مقام الشرح الطويل والتعليل المسهب ، وذلك لأن اللفظة هذه تخرج النقد من الذاتية إلي نطاق الموضوعية مثال :

عارض الكميت الأسدي قصيدة ذي الرمة التي يقول فيها :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنها من كلي مفرية سرب

واجتمع الكميت ببعض الشعراء وأنشدهم قوله حتي إذا بلغ قوله :

أم هل طعائن بالعلياء نافعة وأن تكامل فيها الأنس والشنب ^(١)

فعقد نصيب الشاعر واحدة ، فقال لها الكميت : ماذا تحصي ؟ فقال

خطوك ، لقد باعدت في القول : ما الأنس من الشنب ؟

فنصيب نقد معني بيت الكميت لأنه جمع بين أمرين لا يجتمعان في الذهن ولا في الخارج ، ولم يأت بما سمي فيما بعد بمراجعة النظر وإنما أتى بكل كلمة من واد .

خلاصة القول : أنه لا بد للناقد من توفر الفطرة السليمة أي " الاستعداد الموهوب " ورقة الإحساس والإدراك الصحيح ، وسعة

(١) الإنس : ضد الوحشة ، والشنب : برد الإنسان ورفتها وعذوبتها

الخيال ، وحضور البديهة وهو ما يؤدي إلي وجود السليقة النقدية والحاسة النقدية ، والخبرة الأدبية القائمة علي حسن الإدراك وصحة الفهم وذلك كله مضمواً إليه سعة الثقافة لتؤدي في النهاية إلي الترتيب والتنسيق ، وربط المقدمات بالنتائج والأسباب بالمسببات .

وجدير بالذكر هنا أن كل فريق من النقاد سواء اللاتبيين أو الموضوعيين قد انتصر لمذهبه ، ودافع عنه مطلقاً لا تخلو من صواب ، وفي هذا كلام كثير خلاصته : أن جمهور نقاد العرب موضوعيون : بتعبيرنا الحديث " يرون للجمال صفات حقيقية فيه ، وهم في حكمهم علي هذا الجمال يبنون أحكامهم علي ما يعرفونه من تلك الصفات ، ويجتهدون في الكشف عن أسباب الجمال إن أدركوا الجمال بأنواقهم ، ولم يكونوا قد وصلوا إلي الكشف عن أسبابه (١)

(١) انظر أسس النقد الأدبي عند العرب : أحمد بديوي ص ٨٥ وما بعدها .

طريقة النقد " الناقد مع العمل الأدبي "

من خلال مطالعات الآداب الرفيعة الرائعة يستطيع الناقد الموهوب الذي يمتلك ذوقاً أدبياً رفيعاً وجادت ملكته ، وأثمرت قريحته أن يضع لنفسه خطة في نقده للعمل الأدبي ، هذه الخطة غالباً تقوم علي قواعد منطقية اكتسبها الناقد من كثرة مطالعاته ، وهذه القواعد المنطقية يرتبها الناقد ترتيباً معيناً حسب فلسفة معينة يرتضيها هو ، سواء كانت تسير مع العمل الأدبي كتكوين ، أو كثمرة ، ثم يطبق الناقد هذه القواعد في نقده تطبيقاً دقيقاً علي نحو لا يكاد يترك شيئاً من جوانب النص الفنية إلا ويفسرها ويحللها ويقدم لها حكماً .

- ولا ينبغي أن تغيب عن الأذهان حقيقة مهمة ألا هي أن النقد الأدبي قد يعجز أمام شرح الحالة الفكرية التي تجعل الأديب يسير في طريق الابتكار الأدبي ، أو شرح الحالة النفسية التي تلم بالأديب وذلك لأن النقد يسير منقباً في ظلال هذه الملكات ، محاولاً كشف خباياها ، بيد أنه لا يخلقها خلقاً . وبذلك نري النقد والناقد يمضيان في طريق الشرح والتفسير حتي يصلإ إلي نهاية الشوط فتتبين طبيعة النص وجوانبه ، ويضع الناقد حكمه في موضعه الصحيح .

وللنقد الأدبي في وصوله إلي غايته وهدفه طريقان :

الأول : أن يضع الناقد للنص قواعد وضوابط ينقده علي أساسها غير متبع هواه أو فكره في ذلك .

بمعني أن الناقد يقبل علي النص الأدبي ليحكم له أو عليه بأحكام ومقاييس نقدية قد اطمأن إليها وارتضاها كنتيجة من نتائج اطلاعاته السابقة ومعرفته التي عاش يعمل للوقوف عليها والوصول إليها ، والتي من خلالها تكونت لديه مقاييس للجمال والقبح كما تكونت عنده درجات لكل منهما

هذا المنهج ذكره الدكتور عبد الرحمن عثمان في كتابه " مذاهب النقد وقضاياها " وسماه " التدرج في النقد من الأدب العام إلي الأدب الخاص " وهو ما يسمى المنهج الاستبطائي " الذي يطبق من العام إلي الخاص " وهو منهج أفلاطون فهو يقرر نظرية المثل ويطبقها علي الفنون تطبيقاً منطقياً دقيقاً ثم جاء من بعده أرسطو وطبق تلك النظرية " الاستبطاء "

الثاني : الموهبة في التعامل مع النص ، بمعني أن يقبل الناقد علي النص لدراسته ومعرفة مزاياه الخاصة التي تضعه في درجة معينة من الجودة أو الرداءة من خلال النظر إلي الأشباه والنظائر ، ويمكن ذلك بدراسة النص من حيث الأسلوب - اللغة والألفاظ وصفاتها من إحياء وجزالة وألفة أو ابتذال ، كذلك النوازع والأخيلة والصور والعاطفة ومصادرها وسماتها ، ومدي ارتباط ذلك بالتجربة الأدبية وطبيعتها وجوانب الفكر فيها ، ويقابل الناقد ذلك بنماذج متشابهة فيوازن بين النص المنقود وبين تلك النماذج بحيث تسفر هذه

الموازانات عن بيان واضح يؤدي إلي ظهور الفرق ظهوراً واضحاً مع دقة التفسير والبعد عن الهوي في إصدار الأحكام .

- كل ما سبق من حديث عن طريقة النقد نجده في طرق النقد الحديث إذ يتناول النقد الحديث العمل الأدبي بالشرح الدقيق الواعي ثم يحكم عليه فيأتي الحكم دقيقاً مقبولاً .

أما النقد القديم فالسمة الغالبة عليه هي الشرح القليل ثم الحكم بالجودة أو القبح ، وذلك لأن النقاد الأوائل تجاوزت أوقافهم مع من يتعاملون معهم من قراء وسامعين ولذلك كانوا يجدون في الشرح الموجز ما يغني عن الإطالة .

وهذا الاختلاف والتمايز بين النقد الحديث والنقد القديم هو في الحقيقة سمة من سمات النقد الحي المتطور مع الزمن والفكر والثقافة وما يؤثر فيه من عوامل . وهو ما يؤدي إلي اختلاف المناهج النقدية علي مر العصور .

وهنا لا بد من أمور ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار:-

أ) أن ثقافة القدماء كان لها طابعها المخصوص ، فقد كانت ملكاتهم المتصلة باللغة قوية لذا فهموا أسرارها . وثبروا أغوارها ، فلما بدأت حركة امتزاج الثقافات وظهر أثرها ، بدأت المناهج تتكيف مع الثقافة وتطورها

ب) أن من أراد النقد والسير في طريقه فلا بد له من الاطلاع على ما أنتجته القرائح في عصورها الأولى من مناهج لأن بعض ما يستحدث من مناهج هو في الحقيقة مبني على أساس من مناهج سابقة ج) أن أي اختلاف في منهج من المناهج النقدية لا يقلل من شأن المنهج الآخر خاصة إذا كان فيما مضى من عصور ، لأن ما مضى إنما كان مناسباً لبيئته وزمانه .

- وبعد هذا كله ورغم اختلاف طرق النقد ، وكذلك رغم اختلاف انقباد حول عمل أدبي واحد نتيجة لعوامل معينة فإن هناك خطوطاً عامة يشترك فيها النقاد جميعاً وهي :

أولاً: ربط العمل الأدبي " النص " بالعصر الذي قيل فيه ، لما لذلك من أهمية تساعد على دقة النقد ، فصلة العمل بعصره لها أهمية كبيرة إذ بها يقف الناقد على ثقافة العصر السائدة ، وتاريخه وما فيه من مؤثرات على الأديب من ناحية الفكر والاجتماع وغير ذلك ، وحجم هذه الأثر ، وكذلك البيئة العامة والخاصة للأديب وما تفصح عنه دراسة النص من كشف لطباع الأديب ومزاجه وما يتصل بهذه الأمور ما يكون له الأثر في نتاجه .

ثانياً : التحقق والتثبت من نسبة النص إلى قائله ، ومرجع ذلك إما إلى الديوان المحقق أو إجماع الرواة النفاة على صحة نسبة النص إلى صاحبه أو أخذ النص عن صاحبه مشافهة وهي وظيفة الناقد .

وقد كثرت طرق الحصول على النصوص الصحيحة النسبة إلى قائلها خاصة في العصر الحديث حيث إن الدواوين قد طبعت في الغالب في حياة أصحابها وعقدت حولها مناقشات وندوات أدبية تساعد على صحة نسبة العمل إلى صاحبه من غير صعوبة

ثالثاً : الوقوف على أمور أثرت في الأديب من قريب كأساتذته وشيوخه وبيئته الخاصة أو من بعيد كالأحداث والثقافات المنتشرة في عصره .

- هذه الأمور والطرق تعد تحضيراً للعمل الأدبي الذي سيكون قيد النقد والوقوف عندها ضروري قبلولوج في نقد العمل الأدبي .

ثم بعد ذلك يقوم الناقد بـ :

° قراءة متأنية عدة مرات يصل منها إلى التعمق في فهم النص والتعرف على كل جوانبه والغاية التي من أجلها قيل .

° ثم شرح النص وتحليله ، وموازنته بغيره من النصوص مما تتفق معه في نفس المضمون سواء أكانت سابقة أم لاحقة . من حيث الغاية منه ، وأهميته ، ومدى حسنه أو رداءته ، وما مضمونه ، هل بلغ غايته منه أم لا ، وهل أجهد نفسه حتى بلغ غايته أو لا والوقوف

مع اللفظ ، والمعني ، ومدي استقامة المعني واعوجاجه ، ومدي
مناسبة اللفظ للمعني وما الصور والأخيلة التي احتواها
اللفظ الخ ، مما يؤدي في النهاية إلى استجلاء العمل
الأدبي من كافة جوانبه .

الصلة بين الأديب والناقد

° الأديب صوت البيئة ، يتأثر بها ويظهر ذلك في أدبه بصورة عامة وتنعكس في كل ما يقول من ألفاظ وأساليب وصور وإيحاءات ، لذا يجدر بالناقد الأدبي أن يكون علي دراية ببيئة الأديب العامة والخاصة علي السواء ، فلكي يستطيع الناقد فهم كتاب أو قصيدة أو أثر أدبي فلا مناص له من معرفة بيئة المؤلف " الأديب " وذلك لأن كل أديب تختلف بيئته عن الآخر اختلافاً كلياً ، فالبيئة الجاهلية لأمريئ القيس تختلف عن البيئة الإسلامية لحسان بن ثابت وتختلف عنهما البيئة العباسية لأبي العتاهية وقد كان لهذا الاختلاف أثره في نتائج هؤلاء نوعاً وسمه وموضوعاً ، ومعرفة الناقد بتلك البيئات ضرورية لأن البيئة تؤثر في الأديب وتطبع أسلوبه بواقعها وتوجهه غالباً نحو موضوعات بعينها ، ويظهر ذلك ويستبين حينما تؤثر البيئة في نفس الشاعر فيتمخض عن تعبير أدبي من شعر ونثر .

- والسمات التي تفرق بين نتائج أدبيين ، أو أدباء ضمتهم بيئة عامة واحدة إنما تعود لتأثير البيئة الخاصة التي ترسم ملامح هذا التغير بينهما ، مضافاً إلي ذلك بعض الثقافات والأمور التي تميز انفعاله بالتجربة وتطبعها بطابع خاص تظهر فيه شخصيته بشكل أو بآخر .

- ومجمل القول أن الواقع الذي يعايشه الأديب تظهر بصماته وتتضح قسّماته علي نتاجه الخاص ، فيأتي مختلفاً في بعض جوانبه أو في طريقه تناوله للموضوع .

وعودة إلى الأدب عبر أزمنته المختلفة لنجد من الأمثلة ما يصحح ويوضح لنا ما سبق من حديث .

- فها هو ذا الشعر الجاهلي يتأثر بالبيئة من حوله فيعترف منها الشعراء موضوعاتهم ، وتشبيهاتهم وصورهم ومعانيهم ، وظهر ذلك عندهم علي نحو واضح يمكن تطبيقه علي كثير من الأمثلة في الشعر الجاهلي .

- فإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي " صدر الإسلام " وجدنا أشعار الشعراء الذين تعاملوا مع البيئة الإسلامية واعتنقوا الإسلام قد اتخذت طابعاً جديداً في اللغة والأسلوب والعاطفة والصور والموضوعات .
- وها هو ذا الأدب الأموي يصطبغ بصبغة البيئة الأموية التي امتلأت بالصراعات السياسية حتي ظهرت في الشعر بصورة جعلت السياسية هي المظهر الأول فيه آنذاك .

- ومن ينظر إلى الشعر والنثر العباسيين وقد ارتسمت في ذهنه صورة البيئة العباسية فإنه يجد أثرها في معاني الأدب وأخيلته وموضوعاته وصوره وألفاظه وأساليبه الخ .

* ويجدر بالناقد الأدبي بعد وقوفه علي بيئة الأديب أن يقف علي الجانب النفسي وأبعاده عنده كما ينبغي له أن يعرف أن الشاعر لا يفسر تجربته تفسيراً لأن تفسيرها يحيلها إلي نتف نثرية تتعدم فيها

الحرارة والظلال والشعور ، كما أن الناقد يتحول حينئذ إلي مفسر وشارح

- بيد أن الشاعر أو الأديب عموماً يعاني التجربة ويعمل علي نقلها إلي سامعه أو قارئه ، كما عاناها الأديب وهذه التجربة هي في الحقيقة نتيجة لأسباب نفسية بعيدة العمق كثيرة اللبس والتحول .

فإذا اكتفي الناقد بالمعني الواضح فإنه حينئذ يكتفي بالنتيجة الظاهرة دون الأسباب الحقيقية التي أدت إليها لأن المعني الواضح في النص أشبه بدليل ينبغي أن يسعى الناقد لاقتفاء آثار الأديب في رحلته عبر التجربة الشعرية ، فمن الضروري أن ينطلق الناقد منه للولوج إلي الأسباب البعيدة التي ولدت التجربة في نفس الأديب دون أن تتضح في النص بصورة مباشرة جلية بل تضمّر وراء ظاهر المعني .

- ومعني هذا أن يسأل الناقد نفسه : ما الدوافع والبواعث التي دفعت بالأديب إلي قول ما يقول ؟

فهذا بشار يعلن إشادته بالنار معبودة قومه " الفرس " ويفضلها علي الطين ، بل ويفضل إبليس علي الإنسان " آدم " مع أنه مسلم إلا أنه اتهم بالزندقة والإلحاد والشعوبية فما الذي حداه لقول ذلك إذ يقول :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار

إبليس من نار و آدم طينة والطين لا يرقي رقي النار

فهو يصوب رأي إبليس في عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه السجود ، لأن النار في رأي بشار وأضرابه من الزنادقة خير من الأرض " التراب "

فالوقوف علي صفات الأديب وتاريخه وسيرته وكل ما يظن أن له تأثير عليه يساعد الناقد علي الوقوف علي خباياه النفسية ، ويساعد علي فهم النص فلا يكون سطحياً أو مقصوراً علي الأفكار والصور فهذه المكونات للنص إنما هي قائمة أولاً علي أسس تربطها نفس الأديب وما يحيط به .

ومما ينبغي توفره للناقد أيضاً - معرفة أخلاق الأديب وطباعه فأخلاق الشاعر وطبيعته يولدان الصراع والاحتكاك بينه وبين ما يقبل عليه من الخارج حتي تتولد الانفعالات والتجارب الشعرية ولذلك وجب علي الناقد أن يعرفها حتي يستضي بها علي فهم شعره وما فيه من مضاعفات وجدانية .

كما ينبغي للناقد أن يكون ذا علم بالأحداث التاريخية ، ومواقعها وأماكنها والاتجاهات السياسية والمذهب الأدبي للأدباء ففي ذلك ما يمهد لفهم النص وكشفه فينبغي عليه أن يقف أمام أسلوب الشاعر ويكشف منه الدوافع التي وجته نحو هذا الأسلوب للوقوف علي شخصيته فالأسلوب هو الأديب ، ويختلف الشعراء في ذلك ، فالشاعر الجاهلي أسلوبه وألفاظه ، وللعباسي ألفاظه وأسلوبه -

والمقبل علي الحياة أسلوبه ، والرافض للحياة المتشائم
أسلوبه الخ

جملة القول : أنه يجب علي الناقد أن يقف علي عناصر شخصية
الأديب ممثلة في :

- الزمان الذي يولد فيه
- المكان الذي يشب فيه
- الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي تحيط به
- الأبوان اللذان يولد لهما والجو المنزلي الذي يحيط به ونوع
التربية التي يصيبها
- نوع التعليم والعادات والتقاليد والمقاييس المختلفة التي تكتنفه .
- الأشخاص الذين يلقاهم ويؤثرون فيه وفي حياته .
- كل هذه عوامل تؤثر في صوغ شخصيته في صورة معينة .

الشروط التي يجب توافرها في الناقد

أدرك نقاد الأدب من العرب أن للأدب ثلاث ملكات :

الملكة الأولى : منتجة تتجلى في الشعراء والكتاب والخطباء .

والثانية : ناقدة تستطيع أن تتبين مواضع الجمال في النصوص الأدبية ، وتدل عليها وتبين أسباب هذا الجمال .

والثالثة : متذوقة تدرك بنفسها، أو بوساطة الناقد ما في النصوص من حسن وتتذذ بما تدركه من مظاهر هذا الحسن والجمال .

وبهذا ظهر أن نقاد العرب عرفوا للأدب - ملكات ثلاث : منتجة وناقدة ومتذوقة وعرفوا أن الناقد لابد أن يكون ذا طبع موهوب حتي يستطيع أن يبين للناس ما أدركه هو من أسباب هذا الجمال .

- وعرفوا كذلك أن الناقد في حاجة إلي مقدار من الذكاء ، وهو الذي عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بحدة القريحة والتهاب الطبع في قوله : (وهذا موضع لا يتبين سره إلا من كان ملتهب الطبع حاد القريحة) (١)

- ولم يقتصر نقاد العرب علي الاعتداد بالطبع والذكاء وحدهما في الناقد ، بل رأوا أنه من الضروري له أن يضيف إلي ذلك ثقافة واسعة لا تقف عند شيء بعينه بل تتطلب الإلمام بجملة من الثقافات .

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٤٦

- قال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلي الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت علي أبي عبيدة ، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب^(١) فمعرفة الغريب وحدها لا تكفي وكذلك لا يكفي معرفة الإعراب والأيام والأنساب بل لابد من ثقافة شاملة ، ولذلك كان أدباء الكتاب ذوو الثقافة الواسعة هم أهل العلم بالشعر وأحق الناس بتقديره ونقده في رأي الجاحظ

- وإذا كان الأديب المنتج في حاجة قصوي إلي الرواية ، ومعرفة اللغة ، فالناقد كذلك في حاجة إليهما كي لا يخطئ في معرفة الكلمة التي نطق بها الشاعر وحينئذ يكون نقده صحيحاً لا خطأ فيه ، والشعر فيه الأسماء الغربية واللغات المختلفة ، والكلام الوحشي ، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه ولذا اشتدت الحاجة بالناقد إلي الرواية .

- والناقد في حاجة إلي مخالطة الأدب وكثرة مدارسته لأن ذلك يعينه علي العلم بالأدب وتقويم الشعر ، حتي يصبح بصيراً بأموره مدركاً للفروق بين الجيد والأجود ، وبين القوي والضعيف ، مثله في ذلك مثل أصحاب الصناعات الأخرى ، فأنهم في حاجة ماسة إلي

^١ النعمان : ابن رشيق جـ ٢ ص ٨٤

مخالطة موضوع صناعتهم ، حتي يصبحوا أهلاً للحكم ، ويصبح قولهم حجة فيما يحكمون عليه .

- ولا يسمح نقاد العرب لمن لم تكن عنده هذه الصفات أن يصدر حكماً أو أن يكون لحكمه قيمة عند الناس .

قال قائل لخلف الأحمر ^(١) إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته ، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ، قال له خلف إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ، فقال لك الصراف : إنه ردي ، هل ينفعك استحسنائك له ؟

- وهكذا نرى أن نقاد العرب رأوا أن النقد طبع لا بد منه للنقاد ، وذكاء يستطيع به أن يحلل العمل الأدبي ، وثقافة تمد هذا الذكاء بأسباب الحكم ، ومخالطة للنصوص الأدبية يستطيع بعدها أن يضع كل نص في مكانه من مراتب الجودة والإبداع . وهم في ذلك لا يكادون يختلفون في النظرة عن نقاد العصر الحديث ، مع دعوة المحدثين إلي توسيع الثقافة وإحاحهم علي ذلك .

- ويتضح من العرض السابق أن الناقد الناجح الهادف بنقده ينبغي أن يتحلي بعدة شروط منها :

١- الطبع الموهوب والملكة الفطرية .

٢- حدة الذكاء وقوة البصيرة ونفاذها .

(١) أحد الموالى حفظ الكثير من أدب الجاهلية ، وكان قديراً علي تمييز الأشعار .

- ٣- سلامة الذوق ، ورهافة الحس .
 - ٤- سعة الثقافة والإلمام بثتي الفنون والآداب والثقافات .
 - ٥- العكوف علي مخالطة الآداب ومدارستها .
 - ٦- التجرد من استبداد الهوي الشخصي والميل الذاتي فلا يتعصب لمذهب بعينه ولا لأديب بعينه ولا لعصر بعينه .
 - ٧- صفاء النفس ، وهدوء الطبع واعتدال المزاج .
- بهذه الشروط يستطيع الناقد إصدار الأحكام الصائبة الجديرة بالتقدير والاعتبار .

صلة النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية

العلوم الإنسانية هي ما كان موضوعها متعلقاً بالإنسان وعلاقته هي الحياة من حيث التأثير بها أو التأثير فيها .

ووظيفة هذه العلوم تفسير الظواهر العامة التي تتصل بالإنسان اتصالاً مباشراً أو غير مباشر .

والأدب ظاهرة خاصة بالإنسان فهو تعبيره الذي يصور به الحياة والطبيعة والنفس وما فيها من مشاعر وأحاسيس .

- ولما كان الأدب موضوع النقد الأدبي كانت الصلة إذن وثيقة بين العلوم الإنسانية والنقد الأدبي .

ولكي يكون النقد دقيقاً وموضوعياً وواعياً فلا مفر للناقد من النظر الدقيق في علم النفس والاجتماع والتاريخ والأخلاق والجمال ، وما يمكن أن يكون من العلوم التي تتعلق بالإنسان أو نزعاته ، وقد أسهمت هذه العلوم في التعرف البصير علي السمات الفنية في العمل الأدبي وربطها بأصولها الكامنة في نفس الأديب وذلك لتتحقق دقة التفسير علي أصول من مراعاة الصلة بين الأدب وصاحبه ، وهذا الربط يحقق للناقد التأكد من أصالة الفن وصدقه ، فيحدث بذلك الإقناع والاقتناع وعلي الناقد الأدبي أن يتخذ من ذوقه الأدبي له رائداً في تحديد مدي الاستعانة بهذه العلوم حتي لا يخرج الناقد عن نطاق مهمته إلي التعيد والتقنين وهما لا يتفقان وطبيعة النقد الأدبي.

أولاً : الدراسات النفسية " علم النفس "

لقد استفاد النقد الأدبي من الدراسات النفسية في :
(أ) البحث في علمية الإبداع والخلق الأدبي وكيف يتم ، وكشف عنه
من مقدار حيوية الشعور ومدى وضوح الرؤية ومعايير الاتزان
النفسي الفردي والجماعي ، ، ، فباستعمال هذه
الأشياء يمكن تمييز بعض الأعمال الأدبية عن بعض .

(ب) التعرف علي شخصية الأديب وتحديد معالمها علي ضوء
الدراسات التي يقوم الناقد بتطبيقها علي الأديب والتعرف علي صدي
الأحداث الخارجية علي نفسه ومن خلال معرفة الناقد بشخصية
الأديب فإنه يربط بينه وبين آثاره .

- فالدراسة النفسية (لصاحب الانتاج علي هدي النظريات العامة
لعلم النفس ترشدنا إلي النزعات التي تتجاذب نفس الأديب وتهدينا
إلي خلجاته العاطفية وقد تفتح أذاننا للهمس الذي يدور في خاطره
ويجمجم في وجدانه ، وبهذا تكون علي حافة النبع بحيث نسمع
جولان الماء في المسارب الخفية ، ونبصر انسيابه في تجاويفه
الدقيقة حتي إذا انبجس النبع وتحدر ماؤه عرفنا عذوبته إن كان عذبا
وعلة كدرته إن لم يستسغه الذوق أو انصرف عنه الوارد ^(١)

(١) معالم النقد الأدبي - عبد الرحمن عثمان ص ٣٩ بتصريف

- والدراسة النفسية بجانب التذوق يمكن أن ترجع لنا الأعمال الأدبية إلى حوافزها الدقيقة في نفس الأديب .
- ثم إن الأدب انفعال نفسي ، ومن خلال عرض أشعار الشاعر مثلاً يمكن عرض صورة لحال المشاهد والانفعالات والعواطف عنده ، بل إن العاطفة تنمو وتعمق كلما ازدادت التجربة وكثرت الألفة واشتدت الصلة بين النفس ومصدر الانفعال (١)

(١) خلاصة علم النفس - الأهمالي ص ٤٠

ثانياً : الدراسات الاجتماعية " علم الاجتماع "

أما صلة الدراسات الاجتماعية بالنقد ، فإنها تمتد الناقد بما ينير له الطريق ويقف به علي كثير من المؤثرات التي من خلالها تتضح الصلة بين الأديب والمجتمع ، فالناقد قد يبحث عن البيئة العامة والخاصة للأديب ، ويتعبير آخر النشأة والنظم المختلفة والتربية والثقافة والعادات والتقاليد والصحافة وسائر الظروف الاجتماعية التي تؤثر علي الأديب فتوجه أدبه نحو نوع بعينه أو لون خاص الخ .

- ومن الملحوظ أن طبقات المجتمع تميل كل منها إلي نوع معين من الأدب فالطبقة العليا تميل دائماً إلي أدب الصفوة والأبراج العاجية ، في حين تميل الطبقة الوسطي " المتسلقة - البرجوازية " إلي أدب يمثل المجتمع بما فيه من عادات .

وفي الأزمات والقهر السياسي يعلو صوت الأدب الرمزي ، والإسقاط والتكنية وعدم التصريح ، وهكذا نجد أن النقد له صلة وطيدة بالاجتماع فبه يقف الناقد علي تقاليد وعادات وسائر المعطيات الاجتماعية التي تقف خلف العمل الأدبي وصاحبه .

ثالثاً : الدراسات الجمالية " علم الجمال "

وفي مجال صلة النقد الأدبي بعلم الجمال نذكر الدكتور / محمد السعدي فرهود ما يفيدته النقد من الدراسات الجمالية قائلاً : لقد أسهمت الدراسات الجمالية في توجيه النقد إلي :

- استحضار معني الجمال في كل فن ، والجمال في الأدب يعني ويقضي أشياء كثيرة منها : الأصالة والصدق والبعد بالأدب والفن عن الزيف والكذب والتصنيع .

- حرية الأدب الذي هو نتاج الأديب ، و الأديب حر في وجدانه وطبعه ومواهبه وحرية الفن ، و حرية الأدب والفن حرية مطلقة ، إنها الحرية التي تمثل الجمال في هذا المجال ، الحرية المقرونة بالأوزان والقوانين التي بدونها تكون الفوضى التي لا يعرفها الفن تتمثل في الوزن القافية والاختيار والمشية وحرية الخيال والانسجام بين هذه العناصر .

كما أسهمت الدراسات الجمالية في تغذية الذوق السليم وتتميمته وتلوينه بمعارف قد يفيد منها الناقد في تربية ذوقه وصقله .

- ومع كون هذه المعارف كثيرة ومبهمه ومتغيرة إلا أنه لا يخفي ثاقب البصر الاستفادة منها، ولكن يجدر بالناقد أن ينتبه إلي ما يلي :

أ- أن يقنع في تحقيق غايته النقدية بهذا القدر الذي يعينه علي التفسير والشرح من العلوم الإنسانية ، أي أنه يأخذ منه بقدر حاجته

إلى التفسيرات التي يلجأ في هذه العلوم للكشف عنها في الأعمال الأدبية وجوانب الفن ، ويستخدم من هذه العلوم بمقدار ما يستشفه الناقد في العمل المنقود من صلة بهذه الحياة وبمقدار لا ينقله من جمال النقد إلى مجال العلم . فبعض هذه العلوم متطور لا يقف عند غاية وبعضها متغير يعتريه التبدل من حين إلى حين فهي ليست وسائل دائمة أو مؤكدة من وسائل التفسير أو الاستدلال فلا تؤخذ منها إلا بمقدار .

- والنقد فن جمالي يعمل علي تقويم الأدب وإصلاح ما فيه من خلل ، والسير بالأدب قدماً إلى الأمام وهذا الفن الجمالي مرتبط بالأذواق والاحساسات اللذين يختلفان باختلاف الزمان والمكان والبيئة ، ومن هذا المنطلق بقي أن نسأل سؤالاً وهو :

هل يمكن تقنين النقد الأدبي ؟

- لما كان النقد فن جمالي مرتبط بالذوق ، والذوق يختلف من زمان لزمان ومن مكان إلى مكان ، عارض كثير من النقاد واعترضوا علي وضع قواعد للنقد الأدبي وذلك لأن :

النقد مرجعه إلى الذوق ، والذوق يصعب تعليله لاختلاف الأذواق تبعاً لاختلاف البيئات والثقافات والأزمنة . بل قد يتعدد الذوق في المكان الواحد والبيئة الواحدة رقياً وانحطاطاً .

- الأدب فن واسع المجال وهو موضوع وحقل النقد الأدبي ، وهذا الحقل متعدد الأجناس فكيف تكون له قواعد محددة .
- رفعة الأدب تأتي من جراء ابتكاره ، وكيف أبدع فيه صاحبه وتمخضت تجربته عن خلق جديد ، فكيف تطبق عليه قواعد كانت قد طبقت علي أدب أقل منه جودة ؟ أو قواعد تصلح لعصر دون لعصر الذي قيل فيه ؟ فلو وضعت للنقد قواعد لكانت بمنزلة القيد الذي يكبل عملية التطور والابتكار وهذا لا يتماشى مع الأدب ، لأن الأدب خاضع للعبقريّة الشخصية والنبوغ ، وهذه لا شك أمور تختلف من أديب لآخر .
- الأدب تعبير عن الشخصية ، فقد يقرأ الشخص هذا الأدب أو ذاك فيتذوقه ويأنس به ويتمتع به علي عكس آخر ، فكيف ننقل الذوق من شخص لآخر إذن كيف تكون للنقد قواعد ؟ !
- ظهر إذن أنه لا يمكن تقنين النقد ، أما ما جاء من أحكام قريية من بعضها وقريية من التقنين قالها هذا الناقد أو ذاك فإنما هي متقاربة تكاد تكون متفق عليها وليست من قبل القوانين ، وهذه الأحكام لا تؤثر فيها اختلاف البيانات والأنواق كالصدق والقوة والعاطفة إلخ .

الفصل الثالث

الذوق الأدبي

الذوق هو المرجع النهائي في كل نقد ، وهو في مفهومه الحسي الأول علاج الأشياء باللسان للتعرف علي طعومها ، ثم استخدمت الكلمة في علاج الأشياء بالنفس لمعرفة خواصها من الجودة أو الرداءة .

وإنما يأتي خطر تحكيم الذوق عندما نتخذهُ ستاراً لعمل الأهواء التحكيمية التي لا تصدر في أحكامها عن نظر في العناصر الفنية وإحساس صادق بما فيها من جمال أو قبح ، أو عندما يكون ذوقاً غفلاً لم تجتمع فيه الدربة إلي الطبع .

- والذوق الذي يعتد به هو ذوق ذوي البصر بالشعر وهؤلاء يستطيعون عادة أن يعللوا الكثير من أحكامهم ، وفي التعليل ما يجعلها وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة .^(١)

- فالذوق إذن قوة يقدر بها الأثر الفني ، أو هو ذلك الاستعداد الفطري المكتسب الذي يقدر به علي تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما نستطيع في أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا .^(٢)

(١) النقد المنهجي عند العرب / محمد مندور ص ١٠٢ ط نهضة مصر

(٢) في علم النفس ٣ / ٣٤٧ حامد عبد القادر نقلاً عن كتاب أصول النقد الأدبي

يقول ابن سلام الجمحي " للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات " ويؤكد ابن سلام علي ضرورة المران والدرية في تكوين الذوق فيقول : " إن كثرة المدارس لتعدي إلي العلم " وهذا معناه أن الحكم الأدبي مرجعه إلي الذوق وأعني به ذوق الناقد الخبير بأساليب الكلام ، البصير بما تحمله هذه الأساليب من معان وأخيلة إلخ وقد فطن نقاد العرب القدامى إلي ذلك حتى يقول الأمدي صاحب " الموازنة " " لن ينتفع بالنظر إلا من يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ومن إذا علم أنصف .^(١)

ومن الجدير بالذكر أن نذبه إلي ما ذكره الأستاذ / أحمد ضيف في بلاغة العرب من أنه لا يصح أن يبني النقد علي الأنواق الخاصة ، لأن النقد استحسان ما يحبه الإنسان ويميل إليه وهذا غير ما يراد من النقد ، إذ النقد الصحيح تحليل فكر شخص آخر غير القارئ نفسه واندماج الإنسان في نفس غيره ليفهمه بفكره ، ويدرك عقله بعقله ، والذوق تحليل نفس القارئ وفكره لمناسبة ما يقرأ أو بسبب ما يجده هو نفسه من كلام غيره ، إذ شعور القارئ بسروره ورضاه عما يقرأ هو في الحقيقة ناشئ من أنه وجد ما يحبه ويميل إليه ، وذلك شئ من خواص نفسه ، وميولها الذاتية فكأنه إنما وجد فيما يقرأ نفسه لا نفس الكاتب ، وأعجب بميوله وآرائه لا بميول الكاتب وآرائه

^(١) الموازنة من ص ١٧٦ : ١٨٠

إنه وجد إنساناً آخر صور نفسه بالصورة التي هي عليها ووجد أفكاره يعبر عنها فهو إذا فهم ذلك فهم نفسه .^(١)

والذوق الأدبي : ملكة ليست إلا مزيجاً من العاطفة والعقل والحس وعلي قدر قوة هذه العناصر ودرجة كل منها يحدث الاختلاف في الأثر المنقود ، فمن قوى عنده عنصر الحس وجدته جيئاً يفضل من الأساليب ما يتناسب مع حسه كأسلوب البحري مثلاً ، ومن غلب عليه عنصر العقل فضل ما عند أبي تمام والمتنبي والمعري ، ومن غلبت عنده العاطفة فضل ما يناسبها من شعر الحماسة والعتاب وهكذا .

إذن فقد اتفق ابن سلام مع غيره من النقاد علي أن الذوق المرجع والملاذ ، إذ يقرر أنه في الأدب لا يمكن أن يحل شئ محل التدوق وكذلك ذهب الأمدي في الموازنة إلي أن مرجع الأمر في الأدب إلي الذوق فإذا سألت الناقد عن علة رأيه في شعر ما فإنه لا يستطيع أن يأتيك بعلّة قاطعة ولا حجة باهرة ، وتابعهما في هذا القاضي الجرحاني في كتابه " الوساطة " فإنه يرى أيضاً أن الذوق هو مرد الحكم في الأدب وأنه يكتسب بصحة الطبع وإيمان الرياضة .

وكذلك ذهب ابن طباطبا العلوي في كتابه " عيار الشعر " إلي أن الذوق إذا استحسن أو استهجن فلأسباب في نفس الكلام والشعر .

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب - أحمد ضيف ص ٩٢ .

- وهذا هو رأي المرزوقي أيضاً الذي يقرر في شرحه علي الحماسة أن الطبع والذوق السليم هو الفيصل فإذا سنل الناقد الحاذق عن علة رأيه في شئ من الأدب لم يمكنه الجواب إلا أن يقول هكذا قضية طبعي .

- ومثل ذلك ما قاله الإمام عبد القاهر الجرجاني إذ يرى أن النقد الأدبي يجب أن يكون فناً طليقاً لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبي السليم والملكات الفنية .

والذوق الأدبي أقسام :

فمنه الحسن أو السليم أو الصحيح ، كلها مسميات لشئ واحد وهذا الذوق هو الصادق في أحكامه البالغ دقته الذي يحسن التفريق بين الأنواع ، وعكسه السقيم أو الفاسد وكذلك منه السلبي والإيجابي .
- والفرق بينهما أن السلبي هو الذي يتذوق الألب دون القدرة علي تعليقه

- أما الإيجابي فهو الذي يدرك الجمال ويفرقه من الدمامة ثم يعبر عن ذلك مبيناً مواطنه
وباختلاف الذوق تختلف أحكام النقد اختلافاً بيناً ، وبالمثال يتضح المقال :

قال بشار في قصيدة له :

بكرأ صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

فقال له خلف الأحمر : لو قلت يا أبا معاذ " بكرأ فالنجاح " مكان
إن ذاك النجاح " لكان أفضل ، فأجاب بشار : إنما بنيتها أعرابية
وحشية فقلت ما قلت ، كما يقول الأعراب والبدويون ولو قلت " بكر
فالنجاح " لكان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا
يدخل إلي معنى القصيدة .

- ومثال ذلك أيضا ما قاله شاعر الأطلال " إبراهيم ناجي " في
قصيدته " قلب راقصة " :

أمسيت أشكو الضيق والأينا مستغرقاً في الفكر والسأم

فمضيت لا أدري إلي أين ومشيت حيث تجرني قلمي

- فقد أعجب بهذه الأبيات الناقد عبد اللطيف السحرتي حتي قال
عنها إنها من مفاخر الشعر العصري ، إنها شعر بديع للسأمان
المتحير الذي تجره قدمه لشروء عقله حتي تصبح قدمه هي المسيرة له .
- وقال عنها أحمد ذكي أبو شادي : هذه القصيدة تتميز بالروح
الإنساني الرفاف .

- أما الدكتور طه حسين ، فلم ترقه القصيدة ولم تعجبه حتي قال
عنها : إنها من الكلام المألوف الذي شبع منه الناس ، ثم يبين أن
أسلوب الشاعر في قوله " تجرني قلمي " غير موفق لأن الإنسان هو
الذي يجر قدمه ، ولا تجره قدمه .

- وتابع عبد الوهاب حمودة من النقاد الدكتور طه حسين في نقده ذلك وقال " إن أول ما يصادفك من هذه الألفاظ الابتذال والسوقية ثم انظر إلي هذه الصورة التي لا تلائم شعرا ولا لغة ، فالقلم لا تجر صاحبها إنما تحمله ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه الخ

- ولكن السحرتي دافع عن هذه الصورة وهذه الأبيات بقوله " إنها صورة جميلة لا يبلغها شاعر عادي ولا إنسان مهما أوتي من البلاغة أن يركب هذه الصورة .

- إذن يختلف الذوق بين النقاد تبعاً لأشياء كثيرة .

- والذوق منه ما هو عام وما هو خاص

فالعام: ذوق فني يشترك فيه أبناء الجيل الواحد في البيئة الواحدة وفي البلد الواحد لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم .

والخاص: ذوق فني يتأثر بهذا الذوق " العام " ولكنه مع ذلك يتأثر بال شخصية الفردية .

ومن أهم العوامل التي تؤثر في الذوق الأدبي وتطبعه بطابع خاص :

(١) البيئة: البيئة وما تتكون فيه من الخواص الطبيعية والاجتماعية التي توجد في مكان ما فإنها تؤثر فيه أثراً حسية .

فإذا تغيرت البيئة تغير معها الذوق منشئاً أو ناقداً .

فزهير بدوي خالص وشعره صورة البداوة لفظاً ومعني وخيالاً ، أما الأعشي فقد تحضر ولان شعره وقال في اللهو والخمر مما يلائم ذوق الحضر الذين تأثروا بالثقافات والحضارات المختلفة .

- واختلاف البيئات يتبعه اختلاف في الأدواق ، فبينما تجد الرقة والسلاسة عند شعراء الحضر إذ بك تجد الجزالة والخشونة عند شعراء البدو .

يوضح ذلك قصة علي بن الجهم حينما دخل علي الخليفة المتوكل وكان علي قادمًا من البادية فمدح الخليفة بقوله " أنت كالكلب ^(١) ومر عليه عام في بغداد وخالط أهل الحضر ثم بعد عام من حياته فيها جاء إلي الخليفة ينشده :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوي من حيث أدري ولا أدري

وهو مثال يوضح أثر البيئة في الذوق الأدبي .

(٢) الزمان

والمقصود بهذا العامل مجموعة من العوامل التي تتوفر لجماعة أو لشعب في فترة من الزمان ولا شك أن هذه العوامل في الجاهلية غيرها في الإسلام ، كما تتسم بسمات مختلفة في كل عصر حسب اختلاف الأزمنة ، كما يتكاثر بالاتصال بالأمم الأجنبية التي يتصل

^(١) شبه الخليفة بالكلب وقصد من التشبيه الوفاء ، إلا أنه تشبيه معيب

بها عن طريق ثقافتها ، ومن هنا يكون الذوق الأدبي حلقة تاريخية تصور خلاصة الجهود الثقافية والتهديبية لعصر من عصور التاريخ الأدبي .

(٣) الجنس

إذا اجتمع العاملان السابقان " المكان ، والزمان " في جماعة معينة فإنهم يصيرون علي طول الزمن جنساً واحداً ، ولكل جنس طابعه في الذوق الأدبي ، يقوم علي الخواص المعنوية والجنسية لهذا الأسلوب ، وقد لوحظ من مظاهر ذلك ميل (اللاتنيين) إلي رقة الأسلوب وجماله ، وإلي حرية الأداء وروعة الخيال وذلك في الآداب الفرنسية والإيطالية ، ثم ميل غيرهم إلي الجزالة والقوة والاتجاه نحو التجديد ، وذلك واضح في الأدب العربي لما تناولته الاجناس المختلفة فظهرت فيه طبائعها المختلفة وأذواقها المتباينة إنشاءً ونقداً ، كما ظهر الذوق الفارسي في بشار بن برد ، وأبي نواس ، وابن المقفع ، وسواهم

(٤) القوية :

وهي النشأة وسط الأسرة ، وما يتشربه ويتشبع به الناقد من البيئة الخاصة المحيطة به كالأسرة التي عاش في كنفها ، والتعليم الذي تلقاه ولهذا أثره في طبع الذوق الأدبي بطابع خاص .

كما يتدخل في ذلك كل ما يكتسبه الناقد من الأخلاق والفضائل والخلال ، ثم اختلاف الأمزجة وهي " مجموعة الآثار التي تحدثها في الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيميائية التي تحدثها باستمرار في أنسجة الجسم "

- ومن الأمزجة ما هو دموي ، وما هو سوداوي ، كما تدخل في ذلك المجال أيضا المجالات النفسية التي تستأثر ببعض النفوس فهناك الزاهد ، وذاك الصوفي ، وذاك الحليم ، إلي غير ذلك ، ولكل واحد من هؤلاء ذوق خاص .

والسؤال : كيف يتكون الذوق الأدبي السليم ؟

والإجابة علي هذا السؤال تكون كالآتي :

الذوق الأدبي لا يمكن خلقه في نفوس لم تمنح تلك الهبة من أساسها ولكن لابد من أساس لذلك الذوق وتلك الهبة في النفس حتي يمكن بالممارسة والمعايشة للكلوان الأدبية من شعر أو نثر أن تنمو هذه الملكة .

وأما ملكة النقد فإنه يمكن اكتسابها بطول الممارسة والمران والمثابرة والتطبيق بجانب كل ما سبق من العوامل الأخرى ، والنقد الأدبي يتكئ علي الذوق بالإضافة إلي قوانينه الأخرى ، ومن هنا نقول ، إن الدارسة الأدبية عند الموهوبين لها أثرها في توليد الثمرة حتي الوصول إلي درجة النبوغ والعبقرية "

ولتربية الحاسة الأدبية النقدية عند الإنسان لابد من طرق ينبغي الإلمام بها منها :

* الإلمام بعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وعروض وغير ذلك مما يمكن معه استكشاف ما في النص من مظاهر الجمال التي تنتمي إلي أصول عربية ، ومدي تحقيق هذه المظاهر وتلك القواعد .

وهذه هي النقطة الأولى التي يمكن للإنسان الناقد بعدها من التعامل مع الأدب شعره ونثره مع طول الممارسة والإدمان والصبر والنظر الثاقب إلي اللفظة والصياغة " الأسلوب " والفكرة ، وكل ما يتعلق بالفن الشعري والنثري من جماليات ، والسير في ذلك إلي نهاية الشوط ، مع مراعاة كل الممكنات في كل الاتجاهات التي لا تصطدم بالفكرة ، وفي ذلك ما يجدي وما يجعل من كل حاسة في الناقد قلباً ولساناً ، كما أن في التربية ما يعمل علي رقي الذوق الأدبي وطبعه في المرء علي أحسن حال ، وفيها ما يساعدهم علي القدرة علي التعليل لفهم الأدب من صفات البراعة والحسن .

* كما يفيد في تكوين الذوق الأدبي ما ذكره الأستاذ أحمد الشايب في كتابه " أصول النقد الأدبي " من أن تكوين الذوق الأدبي السليم يتم بوسيلتين :

أولهما : هي تجنب الرديء من الأدب والمشاهد والنوادي والأشخاص والبيئات ، حتي لا يصاب الذوق من جراء ذلك بالرداءة أو بشئ منها وهذا عامل سلبي

أما الوسيلة الثانية : فتشمل مجموعة العوامل التي يلجأ إليها الإنسان لتنمية الذوق وتعهده ليكون صادق الإدراك مرهف الحس ، مستقيم الحكم ، وهذه الوسيلة تتخذ مظهرين :

(أ) عام : وهو الاتصال بالفنون الرفيعة من الأدب والمشاهد والفنون والناس والطباع الحسنة والفعال الاجتماعية والخلقية والثقافية الصحيحة والتكامل بين كل هذه الأمور ينتج فهماً وتذوقاً .

(ب) خاص : وهو الامتزاج بالنماذج الرائعة من الأدب شعره ونثره قراءة وفهماً وتحليلاً ووقفاً علي الصلات بين عناصر العمل الأدبي وتبيين كل ما فيه من صفات وأسباب القوة والجمال ، وتفهم روح الأديب وشخصه وعقله ليفيد القارئ من جمال ذلك وصفائه وذوقه من بسط وتطويل مناسبين من حياة الأديب حتي يتم فهم العمل من كل جوانبه .

- فالذوق إذن وسيلة لتهذيب النقد ، وهو معين ومساعد علي كثير من المميزات ، وبمداومة ذلك يصل الناقد إلي درجة عالية من الذوق ومن هنا تتكون مقاييس صادقة للجمال والتحليل والنقد السليم .

- وبجانب قيمة النقد من الناحية السابقة ، فإنه يساعد علي جمال التفسير والتعبير والاقتراح واختيار النصوص الأدبية الجميلة وتقدير الآثار الفنية والاستمتاع بما في الكون من جمال وتناسق وانسجام تراه عند الذواقة ، ومحاكاة ذلك في الأفكار والأعمال . (١)

(١) انظر أصول النقد الأدبي . ص ١٤٣ بتصرف .

الفصل الرابع :

النقد عند العرب الجاهليين

تشبه نشأة النقد عند العرب نشأته عند اليونان ، فقد نشأ - في الأعم الأكثر - بين الشعراء ، وظل علي ذلك حقباً متطاولة ، حتي وضعت علوم العربية ، فوضعت معها قواعده وأصوله ، ونستطيع أن نلاحظ مقدماته الأولي في صناعة الشعر الجاهلي إذ كان يحتفل بنظم شعره احتفالاً شديداً ، حتي يرضي الجمهور الذي يستمع إليه حين إنشاده ، ولم يكن يكتفي بجمهور قبيلته وما ينثره عليه من كلمات الثناء والإعجاب ، فقد أمدّ بصره إلي أفق أوسع وجمهور أكثر وشهرة أكبر ، فقصّد الأسواق ، وتنقل في القبائل .

وفي أخبار الأعشي أنه كان ينشد شعره علي آله موسيقية هي الصنج وكان يطوف بها بين أحياء العرب ، وكانت الأحياء وشيوخها يحتفلون به ويقبلون عليه لسماعه ويهيئون له الهدايا والصلات ، ولا نرتاب في أن من كانوا يستمعون إليه كانوا يستعيدون - في حضرته - ما ينشده مراراً ، وأنهم كانوا - إذا رحل - يتحدثون عنه وعن شعره ، فيتعصب بعضهم له ، ويتعصب بعضهم عليه مؤثراً ومفضلاً شعراء قبيلته ، وكذلك كان شأنهم في الأسواق حين يستمعون إلي ما ينشد الشعراء ، فيظهر فريق منهم إعجاباً ، ويظهر فريق سخرية واستخفافاً .

ولعل هذه هي أول صورة لتقدير الجماهير للأدب وتقويمه ، وبروزها في العصر الجاهلي يدل علي رقي الذوق حينئذ ، وقد اندفع الشاعر يحاول إرضاء هذا الذوق وأن يقع منه موقع استحسان .

وربما كان ذلك السبب الحقيقي في وقوفه بشعره عند موضوعات بعينها ، بل عند معان وألفاظ بعينها حتي ليقول زهير :

ما أراتنا نقول إلا معاراً ، أو معاداً من لفظنا مكروراً
فهو مقيد بأسلوب فني يتبعه ويقلده ، وهو لا يستطيع أن ينحرف عنه فلا بد له حين ينظم قصيدة أو مطولة من أن يستهلها بالبكاء علي الديار والأطلال ، ثم يتحدث عن رحلته في الصحراء ويصف أثناء ذلك ناقته ، ثم يخرج إلي غرضه من مديح وغير مديح وهو لا يصنع ذلك حراً ، فلا بد له من التمسك بالمعاني والصيغ الثابتة التي يدور فيها الشعراء من قبله ومن حوله حتي لا ينصرف جمهور السامعين عنه ، وحتى يبلغ من التأثير فيهم ما يريد . (١)

كذلك كان الشاعر الجاهلي يحاول أن يوفر في شعره كثيراً من القيم الصوتية والتصويرية وكان يلقي عناء شديداً في هذا التوفير إذ نراه يتقيد بقيود كثيرة ، لا تقف عند الموسيقى والتصوير ، بل تتعدى ذلك إلي الموضوعات والألفاظ والمعاني ، وقد عبر عن هذا الجانب في أشعاره "

(١) النقد / شوقي ضيف ص ٢١ ط دار المعارف ط الخامسة

يقول امرؤ القيس :

عوجا علي الطلل المحيل لعننا نبكي الديار كما بكى ابن خدام^(١)
وقول زهير السابق : ما أرانا نقول إلا معارا ،
ويقول عنتره :

هل غادر الشعراء من متردهم أم هل عرفت الدار بعد توهم^(٢)
وما يقوله امرؤ القيس من أنه يريد أنه يبكي كما بكى ابن خدام ، وما
يقوله زهير من أن الشعراء يبدئون ويعيدون في ألفاظهم ، وما يقوله
عنتره من أن نهج الشعراء في قصائدهم مطرد علي وتيرة واحدة ،
كل ذلك دليل علي أن الشاعر القديم كان يأخذ فنه بقيود ورسوم
كثيرة في اللفظ والموضوع والنهج العام .

ومن يرجع إلي القصائد الجاهلية الطويلة ويترك المقطعات القصيرة
يلحظ في وضوح وجلاء أنها تأخذ نمطاً معيناً في التعبير والأداء ،
وكانما العصر الجاهلي نفسه هو الذي أعد " للقصيدة التقليدية " عند
العرب قصيدة المدح والهجاء ، فإن الشعراء كانوا يحرصون في
كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلي علي أسلوب موروث فيها،
إذ نراها تبتدأ عادة بوصف الأطلال وبكاء الدمن ، ثم تنتقل إلي

(١) عوجا : اعطفا . المحيل : الذي أتى عليه حول . ابن خدام : شاعر قديم يقال أنه بكى

الديار قبل امرؤ القيس .

(٢) أي لم يترك الشعراء شيئاً إلا ترنموا به وتغنوا به .

وصف رحلات الشاعر في الصحراء ، وحينئذ يصف ناقته التي تملئ حسه ونفسه وصفاً دقيقاً ثم يخرج من هذا الموضوع المعين إلي مدح وهجاء أو غيرهما ، واستقرت تلك " الطريقة التقليدية في الشعر العربي ، وثبتت أصولها في قصائده الطوال علي مر العصور " .

وهذا النمط المعين في صنع المطولات القديمة يدل دلالة قاطعة علي أن صناعة الشعر استوي لها حينذاك غير قليل من القيود والتقاليد ، إذ نري القصائد تتحد أنغامها ، وكان عنتره يشكو هذا الاتحاد كما تتحد أساليبها ولغتها وتراكيبها وكما تتحد معانيها وصورها وأخيلتها وكان زهير يشكو أيضاً من ذلك ، فما يقول ابن خدام يأخذه عنه أمرؤ القيس ، وما يقوله أمرؤ القيس يأخذه عنه بقية الشعراء ، وإن جد معني في الطريق كوصف الأطلال عند طرفة بن العبد بالوشم^(١) أخذه زهير^(٢) وغير زهير .

وقد تتبع النقاد العباسيون هذا الجانب من صناعة الشعر العربي القديم ، وهو جانب طريف يكشف لنا عن حقيقة الشعر الجاهلي وحقيقة صناعته ، وأنها لم تكن مستوعباً للتجارب الفردية ، بل كانت مقيدة بمصطلحات كثيرة لا في اللغة والنحو والعروض فقط بل في

(١) يقول طرفه في مطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقة نهد

(٢) يقول زهير في معلقته :

ودار لها بالرقمتين كأنها

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

مراجع وشم في نواشر معصم

الموضوع والمواد التي تكونه ، وما يختاره الشاعر في صنع نماذجهِ من أدوات تصويرية أو أسلوبية أو معنوية . كل ما سبق يدل دلالة قاطعة علي أن الشعر الجاهلي قد قطع أشواطاً بعيدة وأزمنة طويلة بين المحو والإثبات والاعوجاج والاستقامة حتى بلغ هذه الدرجة من النضج والكمال والاستواء الفني والتكرار وأخذ هذا عن ذاك وزاد هذا علي ذاك .

كما يدل علي أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات القليلة يقدمها الرجل بين يدي حاجته ثم زادت شيئاً فشيئاً تبعاً لسنن الكون في التدرج والانتقال والتطور حتى صارت مقطوعات ثم قصائد طويلة .

- ويقال إن أول من قصد القصائد وذكر الوقائع هو " المهلهل بن ربيعة التغلبي " في قتل أخيه " كليب وائل " ، حين قتله بنو شيبان حيث يقول الجاحظ " (أما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه : أمرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة) .

- بيد أن هذا الكلام من رأي الجاحظ يحتاج إلي روية وتمهل في قبوله بل قد لا نوافقهِ علي ذلك . إذ تقدم في الكلام السابق أن امرأ القيس أخذ عن ابن خدام ، وأن عنترة يشكو من الشعراء قبله الذين أتوا علي كل المعاني فطرقوها ولم يتركوا لها معني يترنم به ويتغني

، وأن زهيراً يشكو من تكرار الكلام واستعارته . وهذا كله يؤكد أن الواقع والمألوف يثبتان أنه كانت هناك محاولات جادة في قرض الشعر سبقت مرحلة النضج الشعري وأن شعراء فحولاً قد سبقوا امرأ القيس والمهلهل إلى قول الشعر ، وأنهم قد مهدوا لهما ولغيرهما الطريق إلى اكتمال صورته الفنية عندهم بعدما عاناه الأقدمون من الصعاب والعثار في ذلك .

* وبعد هذا كله نستطيع أن نؤكد أيضاً أن النقد قد ارتبط في نشأته بالشعر وأن النقد الأدبي في الجاهلية ثابت لا ينكر وذلك بما ركب في طباع الجاهليين ، وما جبلوا عليه من استحسان الجيد والإشادة به واستقباح الردي والغض منه .

- كما يؤكد ذلك تلك المراحل التي مرت بها القصيدة العربية ، من الحداء فالسجع فالبيت فالأبيات فالقصائد فالحوليات ، وهذه الأخيرة لم تنظم دفعة واحدة في فترة محدودة ، وإنما نظمها الشاعر الجاهلي علي دفعات في فترات متباعدة ، ومعني ذلك أنه لم يكن ينظم فحسب بل كان يفكر فيما ينظمه ويختبره ويفحصه قطعة قطعة وبيتاً بيتاً ، وما يزال يتأني فيه متخيراً لألفاظه ومعانيه ، ويتركه مدة من الزمن ، ثم يعود إليه فيعيد النظر في أجزائه ويأخذها بالتهذيب والتنقيح والتجويد ، فيصلح فيها ، وقد يحذف بيتاً وقد يزيد آخر ويظل علي ذلك عاماً تاماً حتى تستوي له حوليته أو مطولته منقحه غاية التنقيح.

ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى وابنه كعب والخطيئة ، وسويد بن كراع وعدي بن الرقاع ، ويحيى بن علي المنجم ، وقد رأيناهم يسجلون في أشعارهم الجهد الذي يقومون به في تنقيف شعرهم وما يكابدونه من تجويد حتي يحظي بالقبول ويجود لدي الناقلين .

يقول سويد بن كراع :

أبيت بأبواب القوافي كأنما °° أصادي بها سرباً من الوحش نزعاً
أكالنها حتي أعرس بعدما °° يكون سحيراً أو بعيداً فأجمعاً
أهبت بعز الآبدات فراجعت °° طريقاً أملت القصائد مهيعاً
بعيدة شأو لا يكاد يردّها °° لها طالب حتي يكل ويظلعاً
إذا خفت أن تروي علي ردتها °° وراء التراقي خشية أن تطلعاً
وجشمني خوف ابن عفان ردّها °° فتفتتها حولاً حريداً ومربعاً
وقد كان في نفسي عليها زيادة °° فلم أر إلا أن أطيع وأسمعاً^(١)

وهذا كعب بن زهير يذكر حاجة الشعر إلي التنقيف والتذهيب ،
ويذكر فضله وفضل الخطيئة في هذا المجال يقول :

فمن للقوافي شاتها من يحوكها °° إذا ما ثوي كعب - فوز جرول

(١) الشعر والشعراء ص ٨ : أصادي : أخادع ، نزعاً جمع نازع من نزعت إلي مرعاها
أي حنت إليه ، أكالنها : أراقبها وأحرسها ، أعرس : أنزل آخر الليل : والآبدات :
الوحشيات النافرات ، ويقصد بها القوافي الشروذ الغريبة ، أملت : ملكته والمهيع :
الطريق الواضح الواسع ، الشأو : الغاية ، يظلع : يصيبه العرج . الحريد : الكامل التام .
المربع : زمن الربيع .

يقومها حتي تلين متونها °° فيقصر عنها كل ما يتمثل^(١)
ويذكر عدي بن الرقاع العاملي كيف أنه يعالج المثقف رماحه
ويتجشم في ذلك مثل ما يتجشم :
وقصيدة قد بت أجمع بينها °° حتي أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قتاته °° حتي يقيم ثقافة منادها^(٢)
ويتحدث أبو أحمد يحيى بن علي المنجم عما يصنع بشعره وما يقوم
به من نقده فيقول :

رب شعر نقدته مثل ما ينقد رأس الصيارف الدنيا
ثم أرسلته فكانت معانيه والألفاظ معاً أبكارا
لو تأتي لقالة الشعر ما أسقط منه حلوا به الأشعار
إن خير الكلام ما يستعير الناس منه ولم يكن مستعاراً^(٣) .

فالكثير من الشعراء منذ أقدم العصور ، ينظرون في شعرهم
ويتناولونه بالتهذيب والتجويد ، والتنقيح والاختيار ، ومن ثم نقول :
إن العرب القدماء قد عرفوا النقد الأدبي وزاولوه عملياً ومارسوه فناً

(١) القوافي / القصائد والأشعار ، شأنها من يحوكها : ألحق بها العيب من ينسجها

ثوي ، فوز : مات ، جرول : الحطينة

(٢) الشعر والشعراء ص ٨ ، والميل : المعوج ، السناد : كل عيب في القافية قبل الروي

، والمثقف : من يصنع الرماح ويقومها ، القناة : الرمح ، النقاد : الآلة التي تقوم بها
الرماح ، للمناد : المعوج .

(٣) للعمدة / ابن رشيق ج ٢ ص ١٠٥

خالط طبيعتهم وساقتههم إليه شاعريتهم ، ولعلمهم رأوا في ذلك وسيلة لتطوير الفن الشعري ، واستنهاضاً لهمم الشعراء وإذكاء لروح المنافسة بينهم .

فالذي لا شك فيه أن هذه المراحل والخطوات المتسمة بالتأني والتروي والتثقل من منزلة أدني إلى منزلة أعلى إنما تمثل مراجعة نقدية من الشاعر حيناً ومن السامع حيناً حتي وصلت بالقصيدة إلى وضعها المعروف .

وليس هذا كله إلا نمواً واضحاً لروح نقد عامة سرت بين شعراء الجاهلية حتي يؤثروا في سامعيهم تأثيراً كاملاً ، ولا نصل إلي زهير حتي نجد كتب الأدب تنص علي أنه كان راوية لأوس بن حجر ، أما هو فروي عنه الشعر ابنه كعب كما روي عنه الحطيئة ، وعن الحطيئة روي جميل ، فكان الشاعر المشهور يلزمه تلاميذ يرون عنه شعره وهم ليسوا دائماً من قبيلته ولا من أسرته ، فقد يرحل إليه شباب من قبائل أخرى ليتعلموا الشعر علي يديه كما يتعلمون منه كيف يحسنون صنع الشعر ، وكيف يميزون جيده من رديئه . وإنما نزع هذا الزعم لأنه وصلتنا عن معاصريهم بعض آراء وأحكام نقدية ، وهم بها أولي وأجدر لطبيعة قيامهم علي صناعتهم وتوفرهم علي تعليمها للناشئة من الشعراء .^(١)

(١) فنون الأدب العربي - الفني التعليمي - النقد / شوقي ضيف ص ٢٣

معنى المذهب في النقد الأدبي

المذهب الأدبي أو النقدي :

هو مجموعة من التقاليد والقواعد والأسس يخضع لها الأديب في كل ما يقول وينظم وفي الطريقة التي ينظم بها والموضوعات التي يعالجها وما يتخذها فيها من طرق فنية في التعبير والموسيقي والتصوير والنهج العام .^(١)

أو هو عبارة عن مجموعة مبادئ وأسس فنية أو فكرية أو اجتماعية أو نقدية قائمة علي وعي ، يتمسك بها الأديب أو الناقد ويوضح قيمتها وأهدافها ويناضل دونها ، ويوازن بينها وبين مبادئ مذهب آخر .^(٢)

أو هو عبارة عن مجموعة مبادئ وأسس فنية يدعو إليها النقاد ويلتزم بها الكتاب في إنتاجهم ، تربط الأدب في شكله ومضمونه بمطالب العصر وتياراته الفكرية ، وهي لدي الداعين إليها والمنتحبين علي مقتضاها بمثابة العقيدة الممثلة لروح العصر ، وهي لذلك ليست مفروضة علي الكتاب والنقاد من خارج نطاق العمل الأدبي ، ومطالب جمهوره المتوجه به إليه .

(١) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف ص ١٩ بتصرف كبير ط دار

المعارف

(٢) انظر الألب ومذاهبه / محمد مندور ص ٣٧ بتصرف كبير

° أو هو بعبارة أخرى

اتجاه فكري وفني واجتماعي يعكس روح عصره ويصور مثله ويستجيب لحاجاته ويشارك في نشاطه ويمثل اتجاهاته ، ويقود إمكانياته ، فهو وليد العصر وظروفه ، والعصر هو الذي يفرضه علي كتابه ومفكره ويوحى به إليهم .

العرب والمذاهب الأدبية

ليس من شك أن الشعر هو أعظم مظاهر الأدب عند العرب ، والذي ينظر إليه للوهلة الأولى يتوهم أنه لم يعرف شيئاً من تلك المذاهب الأدبية التي تلاحق ظهورها عند الغرب بدءاً من عصر النهضة حتي اليوم ، ومع ذلك فإنه من السهل أن نلاحظ أن الأدب العربي قد ظهر فيه هو الآخر من أقدم عصوره خصائص واتجاهات تميز بها شعر طائفة من الشعراء المتعاصرين أو المتلاحقين ، كما نلاحظ أن الشعر العربي رغم طغيان التقليد عليه قد تطور - علي الأقل في خصائص صياغته - تطوراً كبيراً حتي انتهى إلي ذلك التصنع اللفظي الذي أحاله عبثاً مجرداً من كل قيمة إنسانية حقة .

بل لقد أحدثت بعض قبائل العرب فنوناً شعرية قائمة علي مزاج أو فلسفة إنسانية خاصة وذلك مثل بني عذرة الذين نحوا في الغزل منحى أنتج ما لا يزال يسمى حتي اليوم بالغزل العذري .

وبينما كانت تقاليد الشعر الجاهلي تجري علي أن يستقصي الشاعر الأوصاف الحسية للمحوبة وينفق جهده في التغني بمواضع جمالها وفتنتها ، رأينا الغزل العذري الذي انتشر في الحجاز في العصر الأموي - يتجه اتجاهاً روحياً فيوفر الجهد علي التحدث عن لواجع الحب وتباريح الغرام .

ويكفي أن نقارن بين غزل امرئ القيس وغزل أحد العذريين كقيس أو جميل أو كثير ، لندرك البون الشاسع بين الفنين وبين الاتجاهين .

- كما شهد الأدب العربي القديم بعض المحاولات المذهبية الواعية كمحاولة أبي نواس في الخروج علي تقاليد القصيدة العربية ، وبخاصة في قصائد المديح ، إذ أراد أن يدعو إلي الإقلاع عن استهلاكها بوصف الأطلال والناقة والرحلة إلي الممدوح ليحل محلها وصف الخمر والتغني بنشوتها ، ولكن هذه المحاولة لم تتجح ولم تكون مذهباً ، لأن أبا نواس نفسه اضطر إلي أن يخضع للتقاليد الشعرية المتوارثة في المداخل لكي يصل إلي رفد ممدوحيه .

وعلي العكس من ذلك ظهر في العصر العباسي مذهب أدبي له كافة الخصائص المذهبية إذ تناهيه الأدباء والنقاد بالتحليل النظري وإيضاح الخصائص المميزة كما اقتتلوا في الدفاع عنه أو مهاجمته والموازنة بينه وبين تقاليد الشعر المتوارثة التي سموها عندئذ بعمود

الشعر ، وهذا المذهب هو المعروف باسم مذهب البديع الذي اعتبر أبو تمام مثلاً له .

وهكذا يتضح كيف أن الشعر العربي القديم لم تظهر فيه اتجاهات مختلفة فحسب ، بل ظهر فيه مذهب أدبي واع بما يفعل ومستند إلي أسس نظرية تحليلية واضحة ، وكلما تقدمت الدراسات الأدبية النقدية في عصرنا الحاضر ازددنا إدراكاً وتمييزاً للاتجاهات والمفارقات الدقيقة التي لم يكن بد من أن تظهر في تاريخ الشعر العربي الطويل وتعدد بيئاته وأزمته ، فضلاً عن تباين طبائع الشعراء الخاصة واختلاف ظروفهم وثقافتهم .

وبالرغم من كل هذه الحقائق فإننا لا نستطيع أن نزع أن الأدب العربي قد تتابعت فيه مذاهب الأدب المختلفة الواعية المستندة إلي أسس فلسفية ونقدية واضحة كما حدث في الآداب الغربية ، وهذا شيء طبيعي ، لأن المذاهب الأدبية العامة لم تأخذ في الظهور في العالم الغربي إلا منذ عصر النهضة والبعث العلمي ، أي منذ بدء انتشار الثقافة ونمو التفكير البشري ، بعد أن خرجت الإنسانية من ظلام القرون الوسطي بينما ظلت مصر والعالم العربي كله غارقين في ذلك الظلام حتي ابتدأت حركة البعث والنهوض متأخرة عند زميلتها في العالم الغربي بما يقرب من أربعة قرون . ثم حاولنا جاهدين أن نعوض ما فات وأن نلاحق ركب الإنسانية العام ، آمليين

أن نقطع في أوجز وقت ما سبقتنا الإنسانية إلي قطعته من مراحل في
القرون الطويلة التي تخلفنا خلالها عن الركب .

الاتجاهات النقدية في الجاهلية

هم السليقة و الطبع عند نقاد الجاهلية :

كان النقد في الجاهلية تقوده الفطرة والذوق والسليقة ، ويتسم بالبعد عن المنهجية ، وأول صور النقد في عصر الجاهلية ما عرف من تلك المحاولات الأولية التي كانت تحدث بالمواسم والأسواق والمجامع الحافلة ، والمحافل الجامعة ، حيث كان يحضرها الشعراء ويتناشدون أشعارهم ويتباهون بجودتها ، بينما يجلس للحكم لهم أو عليهم ، وللفضل فيما بينهم سادة مقدمون ، وعلماء وشعراء ناقدون وكان الشعراء ينزلون علي حكمهم ويرضون به ولا ينازعونهم في ذلك ، كما كانت أحكام الحكام من النقاد ذاتية محضة ، يعتمدون فيها علي أذواقهم الشخصية دون استناد إلي أسس معروفة ، أو مقاييس مألوفة ، وكانت هذه الأحكام التي يصدرونها بالاستحسان أو الاستهجان دون تعليل ، فهي لا تعتمد إلا علي الذوق والفطرة السليمة .

والمتتبع لما وصل إلينا وما قدمته لنا مصادر التراث العربي من شواهد نقدية عن هذا العصر يدرك عن طريق الاستقراء أن النقد في العصر الجاهلي قد دار في اتجاهات عدة منها .

(١) الجانب اللغوي " الاتجاه اللغوي "

(٢) الاتجاه المعنوي " النقد المعنوي "

(٣) الاتجاه العروضي " النقد العروضي "

أولاً : الاتجاه اللغوي " النقد اللغوي "

لقد كان العربي ذا صلة وثيقة بلغته وبأسرارها وبمدلولات ألفاظها فإذا جانبه الصواب وابتعد عنه ، واستعمل العربي لفظة في غير موضعها لا حقيقة ولا مجازاً ولم يلمح هناك علاقة بين ما وضعت له وما نقلت إليه حينئذ تستطيع أن تقول إن الشاعر العربي قد تورط ووقع تحت طائلة النقد في غفلة منه .

- تروي لنا كتب التاريخ الأدبي أن طرفة بن العبد قد استمع وهو لا يزال غلاماً صغيراً إلي المسيب بن علس وهو ينشد إحدى قصائده وقد ألم فيها بوصف بعيره " جملة " علي هذا النحو :

وقد أتناسي الهم عند اذكاره بناج عليه الصيعرية مكدم^(١)
فقال طرفة " استنوق الجمل " وذلك لأن الشاعر وصف الجمل بما توصف به النوق وهي الصيعرية وهي سمة تكون في أعناق النوق خاصة لا الجمال .

ويروي أن طرفة : وهو صبي يلعب مع الصبيان . قال هذا القول للشاعر الجاهلي المتلمس . فقد ذكروا أن المتلمس مر بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشداهم :
ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم

نحييك عن شحط وإن لم تكلم

(١) الناجي : البعير السريع في سيره ، مكدم : من الكلمة وهي الوشم

فلما انتهى إلي قوله :

وقد أتناسي الهم عند احتضاره بنا ج عليه الصيعرية مكدم

قال طرفة " استنوق الجمل ، فقال الشاعر : يا غلام ! من أنت ؟

فقال : طرفة بن العبد فقال الشاعر : اذهب إلي أمك بمؤيدة : أي

داهية ، وقيل إن الذي أنشد هذه الأبيات هو عمرو بن كلثوم التغلبي

بين يدي عمرو بن هند ملك الحيرة - وعنده طرفة بن العبد .

وسواء أكان النقد موجهاً إلي المسيب أم المتلمس أم عمرو بن كلثوم

فإن هذا لا يعنينا بقدر ما يعنينا دلالة هذا النقد علي دقة هذا العربي

في تحري الألفاظ ، وإنكاره علي الشاعر وصفه بعبارة ساخرة

معتمداً علي حسه اللغوي في تخطئة الشاعر الذي جانبه الصواب في

استعمال اللفظ .

- وفي هذا النقد نلمس بعض الموضوعية في الحكم ، بيد أنه حكم

جزئي لم يحط بالبيت من جميع عناصره ، وإنما اقتصر علي عنصر

اللفظ فقط .

ومن النقد اللغوي أيضاً : ما عابه قيس بن معد يكرب - أحد أشراف

اليمن - علي الأعشي ، حين مدحه بقصيدته التي جاء فيها :

ونبات قيساً ولم أبله وقد زعموا ساد أهل اليمن

فعاب قيس الأعشي باستعمال كلمة - زعموا - في هذا المقام الذي

يمدحه فيه ، ونبهه إلي أن سيادته أهل اليمن ليست زعماً ، فالزعم

- كما يقولون - مطية الكذب . فأحس الأعشي بخطئه اللغوي ،
فأصلح البيت وإن لم ينفعه إصلاحه - فقال :

ونبات قيساً ولم آتِه علي نأيه ساد أهل اليمن

- ففي ما تقدم دلالة علي أن العربي كان يدرك بفطرته السليمة
مدي التلاؤم بين الألفاظ ومدلولاتها ، فإذا ابتعدت أو انحرفت عن
دلالتها عد ذلك عيباً وازدراء ، ولما كان الطبع آنذ سليماً والدقة
متوفرة عند العربي قل هذا النوع من النقد وندر .

ثانياً : النقد المعنوي

المعني روح جسمه اللفظ ، فإذا ما ألبست المعاني ألفاظاً لتعبر عنها
تعبيراً مطابقاً لما وضعت له كان ذلك من خير القول وبليغه ، وقد
فطن نقاد العرب في العصور التالية للعصر الجاهلي لمقاييس نقد
المعني الشعري فبدأوا يقيسون المعني بمقاييس شتي منها :

١- الصحة والخطأ ٢- الابتكار والتقليد

٣- الطرفاة ٤- الوفاء بالمعني

٥- الشرف والصغة إلى غير ذلك من المقاييس

بيد أن النقد الجاهلي من جهة المعني ، والذي اهتدي إليه العربي
بذوقه الفطري ومعارفه يثبت أنه كان حريصاً كل الحرص علي
تطوير فنه الشعري ، والصعود به إلي مستوي راقٍ يليق بهذا الفن
الجميل .

كما أدرك العربي بذوقه الفطري أن اللغة إنما وضعت لتعبر عن كل ما يجيش ب صدره وعما يدور حوله في الطبيعة ، لذا فإن الشاعر كان يطمئن ويعجب بنفسه إذا ما طابقت اللغة المعني الذي يريد الإفصاح - أو التعبير عنه مطابقة سليمة ، أما إذا خانه لسانه وابتعدت العبارة عن إصابة الهدف المنوط بها فإنه كان يسخط ويتبرم .

- وقد وضع النقاد في نقدهم لمعانيهم مقاييس لتحديد الشعر الجيد وهي :

- ١) الملاءمة بين اللفظ والمعني مع تناسق العبارات واتساقها .
 - ٢) النظر في جودة الشعر من حيث أدائه ووظيفته الجمالية .
 - ٣) النظر في المبالغة ومدى ملاءمتها للطبع الجاهلي .
 - ٤) الموازنة بين نموذجين شعريين والحكم لأحدهما علي الآخر .
- وعن طريق الأمثلة والنماذج التي أوردتها كتب الأدب سنمضي في شرح تلك المقاييس .

١) **الملاءمة بين اللفظ والمعني** : لا ريب أن ملاحظات الشعراء الجاهليين لم تصلنا كاملة ، ولكن الدلائل كلها تدل علي كثرتها وخاصة عند الرواة المعلمين منهم ، بل لقد تحول بعض هؤلاء المعلمين إلي نقاد يفرضون أنفسهم علي الشعراء ، وأهم من عرف بذلك النابغة الذبياني فقد كانت تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارهم فمن نوه به طار ذكره

ففي الآفاق - وكان الشعراء ينزلون علي حكمه ولا يردون له قولاً
وذلك لخبرته وتجاربه ونظره الثاقب ومكانته في دولة القريض ،
واجتماع العرب علي الرضا بآرائه وقضائه بين الشعراء بدل علي
عناية العرب الجاهليين بالنقد واتخاذهم وسيلة إلي تطوير فن الشعر
وممن عرض عليه شعره فحكم بينهم الأعشي ، والخنساء وحسان بن
ثابت وقد اجتمعوا عليه بعكاظ . فأنشده الأعشي " ميمون بن قيس "
قصيدته الطويلة المشهورة في المدح التي مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

ثم أنشده حسان بن ثابت قصيدته التي استهلها بقوله :

ألم تسأل الريح الجديد التكلما بمدافع أشداخ فبرقة أظلما

وفيه يقول :

لنا الجفئات الغر يلمعن بالضحي وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني مخرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنماً^(١)
ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو من قولها في رثاء أخيها صخر
قصيدتها التي مطلعها :

قذي بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت مذ خلت من أهلها الدار

(١) العنقاء : هو ثعلبة الجد البعيد للأوس والخزرج ، ويريد بالمخرق هنا الحارث بن
جبله ملك الغساسنة المشهور في الجاهلية .

فما انتهت إلي قولها :

وإن صخرأ لتأتّم الهداة به
قال النابغة : والله لولا أن أبا بصير " الأعشي " أنشدني قبلك ، لقلت
إنك أشعر من بالسوق "

فقد أشاد النابغة بالأعشي ثم الخنساء ، ومقتضي الحكم أن النابغة قدّم
الأعشي وأعقبه الخنساء وأهمّل شأن حسان قائلاً له : أنت شاعر
ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن
ولدك " فغضب حسان وقال له : (والله لأنا أشعر منك ومن أبيك)
فقبض النابغة علي يده وقال له : يا ابن أخي أنت لا تحسن
أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع
فخنس حسان لقوله ^(١)

وفي الحقيقة إن نقد النابغة لحسان نقد شديد لأن النابغة تناول فيه
مسألتين : أحدهما لفظية والأخرى معنوية ، أما اللفظية فإن حساناً لم
يجمع الجفّنات والأسياف جمعاً يدل علي الكثرة ، والعرب تستحب
المبالغة في مثل هذا الموقف حين يفخر الشاعر بالكرم والشجاعة في

^(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٤٠ ، والموشح ص ٦٠

قبيلته ، أما المسألة المعنوية ففخره بمن ولدته نسأؤهم ، والعرب لا تفخر بالأبناء وإنما تفخر بالآباء .

ويروي أن النابغة عاب علي حسان أيضاً قوله " الضحى " وقال : لو قال " الدجي " لكان أحسن لأن الضيف أكثر ما يكون طروقاً بالليل لا بالنهار وأن حاجته إلي الرشد في الليل أشد ، وقوله " يقطرن " وقال : لو قال يجرين ، أو يسلن، لكان أدعي للشجاعة ، لأن الجري أكثر من القطر ، فالقطر يدل علي أن نيلهم من أعدائهم محدود .

ومن ذلك النوع من النقد أن الشماخ بن ضرار الشاعر مدح عرابة أحد أشراف الأوس ، فقال يخاطب ناقلته :

إذا بلغتني - وحملت رحلي - عرابة فأشرقي بدم الوتين ^(١)

فعاب عليه أحيحة بن الجلاح ذلك وقال له : بنس المجازاة جازيتها وذلك لأن الشاعر يخاطب ناقلته ويقول لها إذا بلغتني " أوصلتني " إلي عرابة : فموتي فلم يعد لك فائدة ، لأنه وصل إلي ممدوحه التي سيعطيه الكثير وهل هكذا يكون جزاء من أوصله إلي ممدوحه أن يدعو عليه بالموت والهلاك ؟ !

(١) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه ، وأشرقي : من شرق برفقه أي

٢) النظر في جودة الشعر لخير أدائه ووظيفته الجمالية

ومعني ذلك ألا يلقي الشاعر شعره جزافاً دون أن يتخير من الإحساس أجوده ومن الشعور أجمله ومن الأوقات أنسبها كي يؤدي الشعر وظيفته المنوطة به ، ويبدو أن الشعراء حينئذ كانوا يتفاخرون بشعرهم ، ويتنافرون فيه كما يتنافر الأشراف في سؤددهم فكانوا يعرضونه علي المحكمين ليفصلوا بينهم وقد بقيت لنا من ذلك مناصرة نرى فيها الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وعبد بن الطبيب والمخبل السعدي يتحاكمون إلي ربيعة بن حذار الأسدي في شعرهم أيهم أشعر وكان ربيعة من عقلاء العرب وحكمائهم .

فقال للزبرقان : " أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيباً فينتفع به ، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يثلاً في البصر كلما أعيد فيها النظر نقص البصر ، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فلا هي تقطر ولا تمطر ، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم .

فشعر الزبرقان في نظر ربيعة لم ينضج فنياً بعد ، وشعر عمرو يبهـر السامع للوهلة الأولى فهو يخدع البصر ولكن عند التأمل فيه تبرز نواحي ضعفه وقصوره وشعر عبدة قوي محكم لا تهافت فيه ولذلك شبهه بالمزادة التي أحكم خرزها فهي تحمل الماء فلا يقطر

منها وشعر المخبل لم يبلغ بعد مرتبة فحول الشعراء ولكنه في الوقت نفسه لم ينحط إلي مهاوي أدعياء الشعر فهو بين المنزلتين وهذه كلها تأويلات لحكم ربعة ، لأنها أحكام جاءت كلها غامضة فهي لا تخلف وراءها شيئاً دقيقاً واضحاً ، وإنه من الخطأ أن نطلب من الناقد الجاهلي نقداً دقيقاً ، فحسبه أن يرينا تأثير الشعر والشاعر في نفسه .
- ومن أمثلة هذا النوع أيضاً موقف النعمان بن المنذر من النابغة الذبياني حين مدحه بقوله :

تراك الأرض إما مت خفلاً وتحيا إن حييت بها ثقيلاً
فقال له النعمان : هذا بيت إن لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلي الهجاء أقرب منه إلي المدح ، فأراد ذلك النابغة فعرس عليه فقال للنعمان : أجاني قال : قد أجلتك ثلاثاً فإن أنت اتبعته بما يوضح معناه فلك مائة من النوق ، فأتي النابغة زهيراً وقال له البيت كي يجيزه " أي يكمل بعده ما يتم معنا فتلكاً زهير في الإجازة وكان كعب بن زهير حاضراً فقال من فوره :

وذاك بأن حلت العز منها فتمنع جانبها أن يزولا
فقال النابغة : جاء بها ورب الكعبة .

من هنا ندرك أن الإبهام في الشعر عجز وعيب ، وأن الوضوح مقياس هام من مقاييس جودة الشعر .

ويدخل في باب جودة الشعر والبحث عن نواحي الجمال فيه ما خلعه
النقاد في الجاهلية علي الشعر من وصف موجز مثل
أغزل بيت ، أمدح بيت ، أهجي بيت ، أرثي بيت إلخ
فقد قال الأصمعي ، أغزل بيت قالته العرب قول امرئ القيس
وما زرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل^(١)
وإن كان العلماء قد اختلفوا في ذلك فقال بعضهم بل أغزل بيت هو
لعمر بن أبي ربيعة أو جميل بن معمر أو للأحوص — بيد أن كل
هؤلاء كانوا في العهد الإسلامي وما زال كلامنا ينصب علي النقد
الجاهلي .

وقالوا لما حضرت الحطيئة الوفاة قال : أبلغوا الأنصار أن أخاهم
أمدح الناس حيث يقول :
يغشون حتي ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
وقال ثعلب : بل قول الأعشى :
فتي لو يباري الشمس ألفت قناعها
أو القمر الساري لألقي المفالدا
أمدح منه^(٢)

وقال آخرون غير هذه الأبيات

(١) العمدة ابن رشيق ج ٢ ص ١٢٠ دار الجيل .

(٢) السابق ج ٢ ص ١٣٩ .

- ويروي عن أبي عمرو الشيباني : أن عمرو بن الحارث الغساني
أثنى علي قصيدة حسان بن ثابت التي منها :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول (١)
وسماها البتارة " فكانها قد بترت وقطعت المذائح كلها عنده
- كما كان النقاد يقبون قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري التي
مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع
باليتيمة لشدة إعجاب الجاهليين بها فكانها لم تسبق ولم تلحق بأفضل
منها فسموها كذلك

- يقول حسان بن ثابت : قدم النابغة المدينة ، فدخل السوق ، فنزل
عن راحلته ثم جثا علي ركبتيه ثم اعتمد علي عصاه وأنشأ يقول :

عرفت منازل بعريتنا فأعلي الجزع للحي المبين

فقلت : هلك الشيخ ، ورأيتَه قد تبع قافية منكرا ، فما زال ينشد حتي
أتى علي آخرها ، ثم قال : إلا رجل ينشد ؟ فتقدم قيس بن الخطيم
فجلس بين يديه وأنشده :

أتعرف رسماً كالطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راکب
حتي فرغ منها فقال النابغة : أنت أشعر الناس يا ابن أخي ، فقال
حسان : قد خلني منه وأناي لأجد القدرة في نفسي عليهما ، ثم تقدمت

(١) جلق / دمشق

فجلست بين يديه ، فقال : أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم وكان يعرفني قبل ذلك فأنشدته فقال : (أنت أشعر الناس) ^(١)

٣) النظر في المبالغة ومبادئ ملاعمتها للطبع الجاهلي :

حمل الشاعر الجاهلي صوراً عديدة وكثيرة من المبالغة والغلو ، بيد أن النقاد من الجاهليين - بذوقهم الفطري - قد لامعوا بين الطبع والمبالغة ملاعمة كبيرة ، وكذلك بين ما يستريح إليه ذلك الطبع العربي من ألوان تلك المبالغة ، وذلك لعلمهم أن النفس الإنسانية تميل إلي المبالغة والتهويل في كل ما يصدر عنها ، وهي كذلك تجنح إلي الغلو في تصوير أسرار الطبيعة ، فجعلوا الفطرة السليمة هي الضابط المقتن لهذا الغلو وهذه المبالغة .

ولهذا وجدناهم يثنون علي قول عنتره في الكرم وينزلونه منزلاً رفيعاً ومكانة سامية حين يتحدث إلي محبوبته ويقول :

وإذا سكرت فإتني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندي وكما عملت شمالي وتكرمي

- وذلك لأن الكرم لاصق بنفوسهم مختلط بدمائهم ، فالمبالغة فيه

محمودة والغلو فيه غير ممقوت لأنه من مكارم أخلاقهم

أما حين يبالغ شاعرهم في غير ما يرضي فيه حاسة أو نزعة ،

فإنهم يحسون بالفجوة بين هذا الشاعر وبين بيتهم ، ويجدون في

(١) الأغاني ج ٣ ص ٨

شعره شيئاً غريباً لم يألّفوه في حياتهم ومن أجل هذا وجدناهم ينقدون ما تضمنه الشعر من معان غريبة ، فالبيئة العربية بفطرتها تتوحي الصدق والقرب من الواقع إلي حد كبير ، في حين أنها لا تحبذ المبالغة المسرفة ، أو تدعو إلي الإغراق الممقوت ، ولهذا قيل في بيت المهمل الذي يصف فيه وقع السيوف علي الدروع في موقعة :

فلولا الريح أسمع من حجر . صليل البيض تفرع بالذكور

إنه أكذب بيت قالته العرب إذا بين " حجر " وبين مكان الموقعة مسيرة عشرة أيام .

ومن ذلك ما جاء في الأثر أن رجلاً قال لزهير : أني سمعتك تقول لهم :

ولأنت أشجع من أسامة إذ دعيت نزال ولج في الذعر

وأنت لا تكذب في شعرك فكيف جعلته أشجع من الأسد ؟ فقال : إني رأيته فتح مدينة وحده وما رأيته أسداً فتحها قط !

فزهير هنا تخلص من الموقف والتمس لنفسه مخرجاً من المبالغة إذن دائرة المعقول هي التي تحكمهم .

ولذلك نجد الشعراء قد لجأوا إلي ألفاظ تقربهم من هذه الدائرة وتخفف من غلواء المبالغة كلفظة : يكاد أو " يوشك " مثلاً .

ولذلك فإن العرب لم تنتقد أوس بن حجر حين وصف السحاب الكثيف بقوله :

دان مسف فويق الأرض هيديه يكاد يلمسه من قام بالراح
لأن لفظه " يكاد " جعلت المبالغة مقبولة قريبة من الطبع العربي
الذواق ، وحببتها كذلك إلي نفس العربي فاستراح إلي هذا اللون من
المبالغة .

٤) الموازنة بين نموذجين شعريين والاعتراف لهما على الآخر .
روي ابن قتيبة الدينوري في كتابه " الشعر والشعراء " في أخبار
علقمة الفحل وكذلك المرزباني في كتابه " الموشح " تلك الأسطورة
التي تزعم أن امرأ القيس وعلقمة بن عبدة " علقمة الفحل " تنازعا
في الشعر أيهما أشعر واحتكما إلي " أم جندب " زوجة امرئ القيس
- ولعلها كانت شاعرة ، فقالت لينظم كل منكما قصيدة يصف فيها
فرسه ولتلتزما وزناً واحداً وقافية واحدة ، فصنع كل منهما قصيدة
بائية من وزن الطويل ، وأنشدها القصيدتين فقال امرؤ القيس في
مطلع قصيدته :

خليلي مرا علي أم جندب نقض لبيات الفؤاد المعذب

وقال علقمة في مطلع قصيدته :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
ثم أنشدها جميعاً ، فقالت لزوجها " امرؤ القيس " : علقمة أشعر منك
قال : وكيف ذاك ؟ قالت لأنك قلت :

فللسوط ألهورب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب^(١)
فجهدت فرسك بسوطك في زجرك ، ومريته فأتعبته بساقك
وقال علقمة :

فأدركهـن ثاتياً من عناته يمر كمر الرائح المتحلب^(٢)
فأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه لم يضربه بسوط ولا مرأه
بساق ولا زجره فلم يتعبه)
فقال امرؤ القيس : ما هو أشعر مني ، ولكنك له وامق (محبة
عاشقة) فطلقها فخلفه عليها علقمة " تزوجها " فسمى بذلك " علقمة
الفحل "

- (وكل هذه الآراء والأحكام بسيطة فهي ثمرة نقد أولي يعتمد علي
الذوق والإحساس الساذج الذي لم يعقد ، وقد يكون أدخل هذه الأحكام
في باب النقد حكم زوجة امرئ القيس ومع ذلك فإنها وقفت عند
جزئية ، وقد يكون علقمة أشعر في هذه الجزئية من زوجها ، ولكن
زوجها أشعر منه في القصيدة جميعها علي أن العيب قد يكون في
فرس امرئ القيس ، فهو وصاحبه إنما يصفان الواقع ، وحتى إذا
سلمنا لها بأن قصيدة علقمة أجود من قصيدة زوجها فإن ذلك لا

^(١) الألهوب : اجتهد الفرس في عدوه وكذلك الدرة ، والأخرج : ذكر النعام وهو الظليم

، ومهذب : مسرع .

^(٢) الرائح : سحاب العشي ، المتحلب : المتساقط

يعطيها الحق في أن تحكم له حكماً عاماً بتفوقه في شاعريته عليه
وأنة أشعر منه ^(١) ويبدو أن أم جندب أصدرت حكمها متأثرة بمعامل
نفسي وهو بغضها امرئ القيس فقد كان مع حسنه وجماله مفركاً
تعافه النساء سريع الإرواء بطئ الإفاقة ثقل الصدر خفيف العجز
هذا العامل النفسي جعلها تفضل شعر علقمة علي شعر امرئ القيس
- وفي هذه الرواية نظر مما حمل عبد الله بن المعتز علي
إنكارها ^(٢)

ثالثاً : الاتجاه العروضي " النقد العروضي "

اهتدي العربي قديماً عن طريق حذاء الإبل وغيره إلي وحدة إيقاع
يشعر بها ، وينظم عليها قوله ، ثم استقامت أنغامه واستقرت بعدما
استقام الشعر واستوي وتطور ، وأصبحت أنغام الشعر مألوفة لدي
سمع العربي يطمأن إليها متى اتسقت وتناسقت ، فإذا اختلفت
واضطربت نبا سمعه وضاق صدره ، وظل يعالج هذا بإحساسه
وذوقه حتي استطاع أن يقف علي مواطن الضعف والعيب
في شعره .

- يذكر الرواة أن أهل الطبقة الأولى من الجاهليين وأشباههم لم يقو
منهم إلا النابغة والإقواء : هو المخالفة بين حركات الروي في

^(١) النقد / شوقي ضيف ص ٢٥ .

^(٢) تاريخ النقد عند العرب / أحمد الشايب ص ٢٢ .

القصيدة وكان ذلك حينما قال قصيدته التي يصف فيها المتجردة
زوج النعمان بن المنذر وقد افتتح القصيدة بقوله :

أمن آل مية رائح أو مقتدي عجلان ذا زاد وغير مزود ^(١)
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذلك خبرنا الغراب الأسود ^(٢)
ثم قال :

سقط النصيف ولم تزد إسقاطه فتناولته واتقنا باليد ^(٣)
بمخضب رخص كأن بناته عنم يكاد من اللطافة يعقد ^(٤)
وكان أهل الحجاز كغيرهم يعجبون بالنابغة ويقدمونه ، فلما قدم
المدينة : عاب أهلها ذلك عليه فلم يأبه له ، فدرسوا له جارية تغني
شعره وقالوا لها إذا صرت إلي القافية فرتلي " مدي صوتك " بها
فلما مدت صوتها بقافية الأبيات أحس النابغة ما فيها من نشاز ظهر
من اختلاف حركتها ، فقام من فوره ولم يلبث أن غير الروي
المضموم في " الأسود " ويعقد " فقال في الأول :
وبذاك تنعاب الغراب الأسود .

^(١) أراد النابغة بالزاد هنا التوديع والتسليم

^(٢) البوارح : جمع بارح وهي طيور كانوا يطيطرون بها ويتشاءمون منها ومنها الغراب .

^(٣) النصيف : كل ما يغطي الرأس

^(٤) المخضب : المصبوغ بالحناء ، الرخص : الناعم ، العنم : شجر بالحجاز له ثمر
أحمر مستطيل يشبه به البنان (طرف الأصبع) المخضب .

وقال في الثاني

عنم علي أغصانه لم يعقد

وقال : (قدمت الحجاز وفي شعري هنة ، ورحلت عنه وأنا أشعر
الناس) (١)

يتضح مما سبق من نماذج لأنواع النقد ، أن النقد العربي في مبدأ
الأمر كان نقداً أولياً فطرياً لا يعتمد إلا علي الذوق الخالص ، ولا
يسلك سبيل التحليل والتعليل إلا قليلاً ، أما في الغالب فقد كان الرجل
يستمتع إلي قصيدة من القصائد ، أو إلي بيت أو أبيات منها فيتأثر بها
تأثراً ما ، فيصدر عليها حكماً عاماً بالجودة والاستحسان أو القبح
والاستهجان ، ولا يزيد شيئاً علي ذلك ، وقد عرف العرب هذا اللون
من النقد وهذه الطريق في الحكم في العصر الجاهلي وكذلك في
عصر صدر الإسلام فكل النقادات السابقة إنما تعتمد علي السليقة
والفطرة ، وتأثر الناقد بهذا الأثر الأدبي .

(١) طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي ص ٥٥ والموشح ص ٣٩ .